روح الحضارة الإسلامية

بقلم: د. محمد عمارة*

لقد كانت الصناعة الأساس التي بدأت الدعوة الإسلامية بإقامتها، منذ المرحلة المكية، هي صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذي تَدَيَّن بدين الإسلام. وكانت "دار الأرقم بن أبي الأرقم" - في مرحلة سرية الدعوة الإسلامية - أي منذ فجر تلك الدعوة هي أولى المؤسسات التربوية التي أقامها رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام.

قبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة، وتغيير الواقع، كان الفتح الإسلامي للقلوب والعقول بهدي القرآن الكريم، الذي أصبح سلوكاً وسجية وممارسات للحياة التي يحياها المسلمون، بل إن أولى المدن التي فتحها المسلمون. قبل الهجرة النبوية. وقبل إقامة الدولة الإسلامية - المدينة المنورة - فتحها المسلمون بالقرآن الكريم. !

وبعد إتمام الصياغة الإسلامية - بالتربية - للإنسان.. جاءت كل الفتوحات والإنجازات، في ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها، تجسيداً لما تم إنجازه في نفس الإنسان، إذ جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام فالدعوة الدينية لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء، وإنما امتدت لتحقيق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة، والمجتمع، والكون. ونتيجة لذلك توحدت في نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة وائتلفت فيها علاقات الفرد بالمجموع، والخاص بالعام، فتدينت الدنيا، مع بقائها دنيا، عندما صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التي ائتلفت فيها آيات الله في الوحي السماوي بآياته في الأنفس والآفاق.

> **بعد إتمام الصياغة الإسلامية - بالتربية - للإنسان .. جاءت كل الفتوحات والإنجازات، في ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها، فكانت تجسيداً لما تم إنجازه في نفس الإنسان المسلم**

إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردي، والخلاص الذاتي، وإنما لابد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة ووطن واجتماع ومجتمع، وفروض اجتماعية، يتوجه الخطاب فيها والتكليف بها للأمة. وهذه الفروض الاجتماعية أهم وأكثر من الفروض الفردية، بدليل أن إثم التخلف من الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء.

وفي دين الإسلام اقترنت الهجرة في سبيل الله بتأسيس الدولة، وإقامة المجتمع، و«تطبيق القانون» وإقامة نسيج اجتماعي بين الرعية يحقق المؤاخاة، لا في الحقوق الدينية المجردة فقط، وإنما في أمور المعاش الدنيوية أيضاً، بل لقد امتد هذا النسيج بمعايير المواطنة، وحق الاختلاف حتى في الدين إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين.

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية، لتخليص الذات، بمعزل عن الحياة والناس .. بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هي الجهاد، الذي هو فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع. ولقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثراً تكوينياً تربوياً في شخصية الفرد المسلم، حقق ائتلاف العناصر الفردية في المجتمع الإسلامي... الطبيعي منها والشرعي، المدني منها والديني، العقلي منها والنقلي، المادي منها والمجرد. فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية، أبدعها الإنسان الذي صاغته الدعوة الإسلامية.. وتلك خاصية من خصائص الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية. فالرسالات الدينية التي سبقت رسالة الإسلام الخاتمة، إما أنها تزامنت مع حضارات غير متدينة فتعايشت معها، دون أن تغيرها وتصبغها بصيغتها، بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين. وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت في أزمنة الفترة التي خلت من رسالات الدين، بينما تميز الإسلام بكونه ديناً فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعاً إنسانياً، وألفّ في نفس الإنسان بالمنهاج التربوي الشامل، ذلك الائتلاف المتوازن الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين. لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدني لهذا الإنسان - أي الحضارة الإسلامية - ثمرة مجسدة لهذا الذي أحدثه الدين في نفس هذا الإنسان فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذي نشكو منه والذي حدث منذ قرون، والذي هبّ للكشف عن سبب دائه ووصف دوائه كل دعوات وحركات الإصلاح في أمة الإسلام.

@ المفكر والكاتب الإسلامي المعروف

دعوات الإصلاح

ومن دعوات الإصلاح من سلك طريق الفردية المطلقة، الباحثة عن خلاص الذات الفردية، وتنكب طريق المجتمع والحضارة كالصوفية المغالية في التحلل من الضوابط والمعايير الاجتماعية للشريعة. ومن المصلحين من أرجع الداء إلى الفكر كحجة الإسلام الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م)، ومنهم من ركَّز على تنقية العقيدة مما شابها وطرأ عليها كشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨م)، ومنهم من ركَّز على الجانب السياسي في عوامل الخلل كجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/١٨٣٨ - ١٨٩٧م)، ومنهم من لفت الأنظار إلى إصلاح مناهج الفكر والتجديد - كالإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ /١٨٤٩ - ١٩٠٥م).

ثم جاء العصر الحاضر - عصر الاقتباس من الغرب - والذي شهد ثمرات واضحة لكل دعوات الإصلاح السابقة. ومع ذلك بقي الخلل .. وبقيت الأمة تبحث عن مفتاح الإصلاح، وطريق الخلاص والنهوض.

فإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضاري، وازدهارهم الثقافي.. فما سبب التخلف الذي أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو، على حاله الذي كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم في الحياة الإسلامية؟

إن السبب هو غيبة «الروح» روح الدين الإسلامي عن الحضارة الإسلامية وانقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين، هذه الروح التي وضعت الحضارة الإسلامية، بل والتي فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام.

لقد جلس الحسن البصري (٢١-١١٠هـ/٦٤٢-٧٢٨م) إلى واعظ من الوعاظ، فلم يتأثر قلبه بموعظته، فسأل الحسن الواعظ: «يا أخي، أبقلبك مرض أم بقلبي» ؟! إن انقطاع الاتصال، بسبب غيبة الروح، هو سبب المرض والمأزق الحضاري، الذي تبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح.. فما هي هذه الروح التي جعلت الإسلام، دون الديانات الأخرى، يصنع حضارة وثقافة، ولا يقف عند مجرد الدين؟



الإمام محمد عبده... دعا إلى إصلاح مناهج الفكر والتجديد

تشخيص العلة

وأين موطن الخلل الذي عطل الفعل الإسلامي في الحضارة والثقافة .. فتراجعت الحضارة الإسلامية وضمرت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام كما هو، وبقاء الإيمان به والاستمساك بعراه؟

لقد عرض الشيخ الفاضل ابن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن:

• تميز الإسلام الدين بإفراز الحضارة وبناء الثقافة.. فإذا كان الإسلام، باعتباره ديناً يشترك مع غيره من الأديان في القضايا التي هي موضوع الديانات عامة، فإن للإسلام نواحي ينفرد بها عن تلك الديانات، التي اشترك معها في القضايا الدينية بصفة عامة، وكانت له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى. فالحضارة الإسلامية، أو تلك التي نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هي سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية، كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها، فالإسلام لم يقف عند حدود التعايش مع العلم. بل أصبح كل موضوع علمي ذا صلة بالعقيدة الدينية. وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما ورائها ارتباط التفاعل والتمازج، ونشأ من ذلك اتجاه فاعل ، يدفع به العامل الديني الاعتقادي في كل وجه من وجوه الحياة، فصار الداعي الديني يستلهم ما يقوله العالم، وما ينتجه الأديب، وما يصوغه صاحب الفن، وصارت المعرفة العلمية سنداً لكلام المتكلم، وفقه الفقيه، على الصورة التي ربطت عناصر المعرفة، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية، مع الحقائق الاعتقادية التي يتجانس فيها العلم مع الدين.

• امتازت الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام، لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية.. فكل الحقائق المتصلة بالمادة والمتصلة بما ورائها، هي في متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة، المستند بعضها إلى بعض في غير تنافر ولا

امتازت الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام. لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية

تدابر، فالمدركات الغريزية، وراءها المدركات الحسية، ثم تأتي وراءها المدركات العقلية التي تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية الآتية عن طريق الوحي وإلى التسليم بها والإذعان لها. وتبقى هذه المدركات متعاونة متساندة، لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل عن طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطرق، يمكن أن يتصل به طريق آخر منها، حتى تنتهي إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة، وهو طريق الوحي.

لقد كانت الحضارة الإسلامية أثراً من آثار إنسان اكتسب وضعاً منسجماً مع ذاته، آمنا إلى نفسه، فصنع على مثال نفسه حضارة اكتسبها مما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات.

لكن .. ما الذي حدث، حتى تخلفت الحضارة الإسلامية، وتهلهلت ثقافتها.. مع بقاء الإسلام، الذي صنعهما وحقق لهما الازدهار لعدة قرون، على ما هو عليه؟

لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام، وإنما كانت الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، وكانتا تتطلعان إلى الإسلام بذاته، تحنان إليه وترجوان شفاءهما عنده، وكان الأقربون والأبعدون يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامي، في حضارته وثقافته ليس إلا أمراً آتياً من انحراف عن الأصل، وانفلات عن العامل التربوي الأصلي الذي لزم الأصول، وأحكم الأوضاع. فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها، واضطربت أوتادها.

إن الذي حدث في العقيدة الدينية، وقضى بتضعضع الحضارة، إنما هو انكماشٌ صدّها عن أن تخلع من روحها على الحضارة، فأصبحت الحضارة خائرة جامدة، لا تتقدم

جاءت إنجازات الحضارة الإسلامية في العمارة ثمرة من ثمار الائتلاف والتوازن الذي اصطبغت به حياة المبدعين المسلمين الأوائل


أرامكو السعودية

.. وما كان ذلك الانكماش إلا أثراً من آثار الضعف، الذي أصاب العقيدة في جوهرها. إن الإرادة الاعتقادية البناءة هي التي خارت وضعفت، فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه، فصارت هي في واد والعقيدة الدينية في واد. وبقي المسلم وفياً لعقيدته الدينية غيوراً عليها، من جهة، متقبلاً لحياته العملية، مطمئناً إلى واقعها من جهة أخرى، حتى أصبح المبدأ النظري والواقع العملي عنده متباينين وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار أن الدين خيرٌ غير واقع، والدنيا شر واقع، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه ديناً لا يؤثر فيه إلا لماماً، ويعيش في دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعده عن الدين.

ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيات أجنبية، فيها العلم، وفيها الصناعة والقوة، وفيها الحكمة، فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية، كما تناول المدنيات التي احتك بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها جامداً، واعتبرها من جملة صور الحياة التي كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين.

ذلك هو موطن الخلل الذي كان ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م) هو أفضل من أدركه وحلله. لقد حلل ابن خلدون المشكلة تحليلاً دقيقاً، عندما جعل شؤون السياسة، والعمران، والصناعة، والعلم، في الدولة الإسلامية، تبعاً لشأن الدين. وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية، أصلاً وأساساً لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة وركود العمران، في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة، وانتقاص الصنائع، وتلاشي ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية. مرجعاً كل ذلك إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التي هي أساس العمران الناشئ به، والدولة القائمة عليه، أعني العقيدة الدينية، فرد ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد تكوّناً إيمانياً، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته، ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكرية.

وهكذا فابن خلدون يرجع أسباب أمراض المجتمع الإسلامي إلى تغير الوازع الديني إلى مقاصد التغلب والقهر، والتقلب في الشهوات والملذات، وحلول العصبيات الجاهلية محل عصبية الدين.

لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأصح روحها، وهو العقيدة الدينية.

وإذا كانت هذه هي المشكلة .. فما هو حجمها؟ وما هو عمرها؟

إن حجم المشكلة ليس بالهين، وعمرها ليس بالقصير، وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعت وتخلخلت، وأن الثقافة قد ذوت وانكمشت، وأوشكت أن تصير حطاماً، فإن ذلك ليس وليد الأمس، ولكنها الأدواء التي استفحلت في الفرد في القرون الأخيرة، حتى عضلت، وعز دواؤها، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع الذي ضج قرننا الحاضر بالشكوى منه.

خاتمة

بعد تحديد روح الحضارة الإسلامية، وتشخيص موطن الخلل الذي أصاب حضارتنا وثقافتنا فما هو الحل الحقيقي لهذه المشكلة.. وما هو المخرج من هذا المأزق الذي يأخذ بخناق الأمة؟؟

إن الحل هو في العودة إلى الروح التي صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة.. إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمستقلة، «فلولا التكوّن الفردي المكي، والتكوّن الاجتماعي المدني، لما كانت آثار الحضارة التي تبدت في عواصم الإسلام، فإذا كان الناس اليوم يحنون إلى عهود ذهبية، ازدهرت في تلك العواصم ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها، فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولد تلك العصور الذهبية، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي، الذي كوّن الفرد قبل أن يكون المجتمع، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألفت كيانها..».

أما إذا وقفنا عند «استقلال العَلَم والنشيد»، دون حقيقة «الاستقلال الحضاري»، الذي هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه.. «لقد خرج العالم الإسلامي من تحت حكم الغير، واسترجع سيادته الذاتية، لكن هل هو في استطاعته أن يعاود حضارته، ليضطلع بأعبائها من جديد، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية، التي انبثقت عنها الصورة الماضية التي عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟؟.

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التي حار فيها المصلحون .. روح الحضارة الإسلامية، التي صنعت وميزت الحضارة والثقافة في عصور النشأة والازدهار.. وموطن الخلل الذي جعل الحضارة تتراجع، والثقافة تتهلهل. وهي الحل والمخرج من هذا المأزق الحضاري الذي تعيشه أمة الإسلام. ■

تميَّز الإسلام بكونه دينا فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعاً إنسانياً، وألفّ في نفس الإنسان بالمنهاج التربوي الشامل، ذلك الائتلاف المتوازن الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين

فهمي هويدي في حديث لـ (القافلة):

يجب ألاّ نضع الغرب كله في سلة واحدة

حوار : محمد الدميني - هيئة التحرير

الأستاذ فهمي هويدي، شخصية عربية فكرية غنية عن التعريف. شارك ويشارك بقلمه في عدد من الصحف العربية المرموقة صحفياً وكاتباً وباحثاً. عمل في جريدة الأهرام منذ عام ١٩٥٨م وانتقل منها في أواخر السبعينيات إلى الكويت ليعمل مديراً لتحرير مجلة "العربي" الشهيرة. وفي منتصف الثمانينيات عاد مرة أخرى إلى "الأهرام". وطوال فترات عمله لم ينقطع عن المشاركة بفاعلية في عدد من المؤتمرات والمنتديات التي نظمتها مؤسسات ثقافية عربية وغربية عديدة. كما لم ينقطع عن إصدار المؤلفات التي بلغت سبعة كتب هي : القرآن والسلطان، وأزمة الوعي الديني، والتدين المنقوص، والإسلام في الصين، وإيران من الداخل، وحتى لاتكون فتنة، والصرب وإيران. يضاف إليها عشرات أوراق العمل والمداخلات والبحوث التي شارك بها في منتديات داخل الوطن العربي وخارجه.

التقينا به في القاهرة وطرحنا عليه أسئلتنا فكان هذا الحوار:

- نستطيع القول أن هناك رؤى شتى حين الحديث عن العلاقة مع الغرب، والتعاطي معه إجمالاً، وأنت أحد المفكرين الذين تناولوا هذه العلاقة عبر مقالاتك، هل تلخص لنا رؤية معينة، أو طريقاً هادية واضحة المعالم لمقاربة هذا الكيان المسمى «الغرب»؟

● لا نستطيع أن نقول اليوم إن الغرب كله واحد، فهو يتوزع على أوروبا وأمريكا بالدرجة الأولى، وكل مجتمع منهما له خصوصيته، كما أن هناك فرقاً مهماً بين المؤسسات السياسية، وبين المؤسسات العلمية والاقتصادية والشعبية. بمعنى أننا لا نستطيع أن نرى الغرب كله في سلة واحدة، فللغرب تضاريس، لابد أن تفهم، وليس كل ما يتردد لدينا يعبر بالضرورة عن رأي الغرب، أو عن رأي كل الشرائح الاجتماعية فيه.

وأنا أضع بين قوسين تنبيهي الدائم إلى أهمية علاقتنا مع الشرق، لأن الغرب يحتل مساحة كبيرة من إدراكنا واهتمامنا، ولا نعبأ كثيراً بالشرق القريب منا، والمؤثر بقوة في مجريات الساحة الدولية أيضاً. فضلاً عن هذا، فنحن كمسلمين، لم نعد غرباء على الغرب، فشطر منا هو جزء من الغرب. وحين نتحدث عن أن عدد المسلمين الذين يسكنون أوروبا الغربية يبلغ اليوم ٣١ مليون مسلم، مضافاً إليهم سكان روسيا المسلمين الذين يبلغون قرابة ٢٠ مليون مسلم، فإن هذا يعني أن هناك أكثر من ٥٠ مليون مسلم ليسوا ضيوفاً على تلك البلدان، بل هم يمثلون جزءاً من نسيج تلك المجتمعات، وهم يؤثرون بأصواتهم على مجريات الحياة هناك. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، إذا قيل أن العدد يقارب ٩ ملايين، فإننا نجزم أن أصواتهم ليست قليلة، والرئيس الأمريكي المنتخب بوش حصل، في ولاية فلوريدا، على ما نسبته ٨٨٪ من أصوات المسلمين خلال الانتخابات الأخيرة، وهذا كان أحد العوامل التي ساعدت على ترجيح كفته أمام المرشح آل غور.

وما أريد أن أقوله هو أن الغرب ينبغي أن نتعامل معه على قاعدة من الفرز، فلا نضعه كله في سلة واحدة، ولا نقع في الخطأ الذي يتعامل به الغرب معنا، فهو يرى خطأ أن المسلمين كلهم شيء واحد، فحين يرتكب عمل مافي أفغانستان، فإن المسلمين كلهم أصوليون يناصرون ذلك العمل، وعندما تقدم جماعة مسلحة في الجزائر على ارتكاب مجزرة ما، ندان عليها جميعاً، ويصبح كل مسلم في أوروبا متهماً.

على أننا لانستطيع أن نغفل قوة وفعالية تأثير وسائل الاتصال في الغرب، فثورة الاتصالات أفادت في شؤون حياتية كثيرة، لكن من سلبياتها أنها سمحت لفئات ذات نفوذ وقوة أن تهيمن وتشكل الرأي العام في العالم كله، فمثلاً حين يقع حادث في الولايات المتحدة كتفجير

يصعب على القوى الدولية أن تقبل بعودة المنطقة إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٩٠م، أي قبل مدريد وأوسلو

تكفلت وسائل الاتصال الآن بنقل الغرب كله إلى بيوتنا، ولم يعد ذلك العالم الغامض الذي توارثته مخيلتنا



فهمي هويدي .. مسيرة طويلة من العطاء الفكري والثقافي

أجيال تعلمت وعاشت وتعيش هناك، ولا أعتقد أن الأمر بقي لغزاً بحيث يحتاج إلى نظريات، وأظن أن المسلمين يحاولون الآن تأسيس أو صياغة فكر وفقه جديد للتعامل مع الغرب.

في زيارتي الأخيرة إلى آيرلندا، تابعت جلسات اجتماع المجلس الأوروبي للبحوث والإفتاء، التي كانت تدور حول مفهوم جديد يدعى: «فقه الأقلية». أي كيف يمكن أن يصوغ المسلمون علاقتهم بالمجتمعات الغربية التي يعيشون فيها كأقلية، فالمنظومة الفقهية التي توارثناها تحدثت عن مجتمع مسلم فيه أقلية غير مسلمة، لكننا الآن نمر بحالة مختلفة هي وجود: مجتمع غير مسلم فيه أقلية مسلمة، وبالتالي فهذا يحتاج إلى تفكير جديد، وهناك جهات تحاول أن تصوغ هذه العلاقة على أساس يطمئن المسلم ويسمح له بالتعايش والتفاهم مع الغرب، على أساس من الاحترام والندية والحفاظ على ثوابته وعقيدته.

من جهة أخرى فهناك حديث الآن عن تجميع المنظمات الإسلامية من الغرب في تكتلات ذات ثقل نوعي بهدف التنسيق ومد الجسور للتفاهم. وأريد أن أشدد هنا على تفريق واضح هو: أن الغرب الأمريكي هو غير الغرب الأوروبي، فالأخير له تجربة تاريخية معنا هي: الحروب الصليبية، أما الغرب الأمريكي فله موقف مختلف، وللأسف فإن هذا الغرب الذي بدأ صفحة بيضاء معنا، انتهى منحازاً ومؤيداً بشكل لافت للنظر لإسرائيل.

مع هذا فهناك مجهود يحدث تراكماً مستمراً ويحاول صياغة علاقة مستمرة تعتمد على الفهم والتفاهم والتفاعل الإيجابي مع المجتمعات الغربية، خصوصاً وأنها تجمع بين جنباتها ملايين المسلمين. ولم تعد القضية هي العلاقة بين الإسلام والغرب، ولكنها ما هي وضعية الإسلام في الغرب.

مزايا العنف

– في كتابك الذي قرأته أخيراً «إحقاق الحق» هناك تأييد في أغلب فصول الكتاب على أهمية التأصيل لمفهوم التعايش والتسامح بين الأديان

أوكلاهوما، يوضع المسلمون هناك كلهم في قفص الاتهام، ويقذفون بالحجارة والطوب في بعض الولايات لمجرد أنهم مسلمون، والسبب أن إعلامهم المغرض عبأ الرأي العام بصورة مغلوطة عن سلوك المسلمين هناك، يضاف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن نسقط دور المؤسسة الصهيونية في هذا الاختراق الإعلامي الذي ساعد دائماً على توتير العلاقة بين المسلمين والعالم الغربي، وقطع الطريق على أغلب المحاولات التي بذلت لإقامة علاقات سليمة معه. وبمعنى آخر فإننا نحاول دائماً أن نفهم الغرب، لكننا لانرى محاولة مماثلة منه تستهدف فهمنا أيضاً.

فقه الأقلية

– أعتقد أننا نتحدث هنا عن أكثر من «غرب»، في علاقتنا به، وفي رؤيته لنا، هناك جهود في فهم الغرب والتعاطي معه بذلها مفكرون إصلاحيون منذ أوائل القرن حتى اليوم، لكننا ونحن نشرف على قرن جديد مازلنا ننتج الأسئلة ذاتها، ولم نصل إلى فهم أو تفاهم حقيقي مع هذا الغرب!..

● الأمر لم يعد مشكلاً كما كان يحدث في الماضي، فوسائل الاتصال تكفلت الآن بنقل الغرب كله إلى بيوتنا، ولم يعد هو ذلك العالم الغامض الذي توارثته مخيلتنا. هناك ثورة اتصال، وهناك حركة انتقال متواصلة وهناك

والأعراق. ومن يطلع على مقالاتك التي تنشرها دورياً في الصحف الخليجية والمصرية يرى توجهاً دائماً لديك لتأسيس هذا المجتمع. هل ترى بوادر ملموسة لإقامته؟

● أنا أرى أن المسائل تتطور بشكل إيجابي على نحو كبير. أولاً: يتحتم القول أن إحدى مزايا «التطرف»، هي في دفعها كثيرين إلى التشبث بالاعتدال.





من مؤلفات فهمي هويدي التي جاءت مواكبة للأحداث العامة

فأنت حين تجد موجة غاضبة مخاصمة للمجتمع أحدثت رد فعل لدى الطرف الآخر فأحدثت موجة عنف فإنك تتمسك بالوسطية والتسامح.

وثانياً: أن هناك حديثاً مهماً عن «فقه الخلاف»، وقد تشوهت للأسف منظومة الفقه الفكرية الإسلامية، فالناس يتصورون أنهم حين يتحدثون عن «التعددية» و«الحق في الاختلاف» فإنهم يبتدعون شيئاً، نستغربه، لكننا نعد هذا جزءاً من إيماننا واعتقادنا بأن الله ولحكمة أرادها قد خلق الناس مختلفين.

إذن فهامش الاختلاف واسع ومعترف به وله شرعيته، ثم إن لنا قواعد مؤسسة في المرجعية الإسلامية، وهي علاقة إيجابية مع الآخر أياً كان اختلافه. فللآخر حق الكرامة، فإن كان من أهل الكتاب فذاك يرفع من شأنه درجة، وإن كان من أهل الملة فإنه يرفعه درجة أخرى، ثم إن النصوص القرآنية واضحة. قال تعالى

بمعنى أن الأصل في علاقتنا بالآخر، هو البر والقسط، مالم يقاتلنا أو يخرجنا من ديارنا.

نحن لدينا مرجعية تسمح لنا بالتعايش الآمن الذي يعطي للآخر حقه في الكرامة، والشرعية، وتدفعنا إلى تعاون يعمر الأرض مبني على البر والتقوى. ونحن ندافع عن هذه المرجعية، ونزيح عنها ما علق بها من تراب وصدأ تراكما عليها من شتى الممارسات التي رصدها التاريخ.

- موجات العنف والتطرف التي صعدت فوق سطح حياتنا الاجتماعية وتسربت إلى مواقع الفكر والتحليل، لها أسبابها الاقتصادية والسياسية الظاهرة. ترى ما هي أسبابها الفكرية والمعرفية؟

● يقول علماؤنا: «لكي تمنع الحرام لابد أن تشجع الحلال»، ولكي تمنع التطرف والغلو، لابد من فتح الباب للاعتدال، لكن أن يكبل الاعتدال ويحارب ويلاحق، فلا مفر أن يفسح ذلك مجالاً أوسع للتطرف، والبلاد التي حاربت التطرف لديها مشكلة سد أبواب ومنافذ الاعتدال.. وأضيف أننا إن أردنا حقاً مواجهة التطرف، فلابد من التدقيق جيداً في مصادره، وفتح الباب واسعاً لخطاب الاعتدال، وألاّ نشن عليه الحرب كما حدث في بعض الأقطار، ولم تكن النتيجة سوى رجحاناً لكفة التطرف.

تجفيف الينابيع

- تحدثت في مقالاتك عن مفهوم: «التوعية لا التجفيف» .. هل يمكن إلقاء الضوء على مصير هذا المفهوم؟

● أطلقت في المغرب العربي تحديداً وللأسف دعوى أحسبها غير بريئة، دعت إلى ما يسمى بتجفيف ينابيع التطرف. وهذه الدعوى بنيت على زعم يقول: إن التدين والتضييق عليه، يشكل مدخلاً من مداخل معالجة التطرف. وهذه دعوة خطيرة، لأن التدين لا يؤدي إلى التطرف، لكن التدين المنحرف هو الذي يؤدي إلى ذلك. ففكرة تجفيف الينابيع لم تكن حرباً على التطرف ولكنها للأسف تحولت إلى حرب ضد الإسلام والاعتدال، وعملت لصالح التطرف. وما نخلص إليه هنا إذن هو وجوب تقوية الحصانات أو الخلايا الحية، فهي الكفيلة بصد موجات الخلايا المريضة.

- هناك حديث عربي مشترك عن مناهج التعليم إجمالاً، وكونها أسساً ينطلق منها فهم متماسك لتنشئة الأجيال الجديدة وتصور المستقبل، وهناك شكوك في صلاحيتها، وقد توجد فروق إيجابية نسبية بين دولة وأخرى، لكن يوجد شعور قوي بأن مناهج التعليم في الدول العربية لا توافق طبيعة العصر ومتغيراته ولا تمتلك القدرة على تقديم عمل وحياة تعينهم على مواجهة المستقبل؟ كيف تنظرون إلى ذلك؟

لا أرى أن دور الصحافة يمكن أن يتراجع بالمطلق في مقابل الإنترنت والنشر الإلكتروني، لأن الكلمة المكتوبة تصطحبنا في كل مكان، دون أزرار أو مفاتيح. لكن هذا الدور لم يعد آمناً بالتأكيد

● في هذا الجانب توجد مشكلات عديدة، وقد تختلف الحالة من دولة إلى أخرى، لكن الجميع متيقن أننا إذا أردنا صنع نهضة حقيقية فإن المدخل هو التعليم. هناك بلاد حققت نهضتها بالثورة في مجال التعليم. وأنا أذكر أن روسيا حين تقدمت الولايات المتحدة في إطلاق أول مركبة إلى الفضاء، انزعجت الولايات المتحدة لهذا السبق، وشكلت حينئذ لجان عديدة لبحث هذا الأمر، وكان من أهم ماقيل آنذاك هو: «أنكم إذا أردتم أن تلحقوا بالنهضة العلمية فابدأوا بالتعليم». وقبل أيام كنت في آيرلندا التي كانت قبل عشر سنوات دولة فقيرة، تجوب شوارعها وسائل المواصلات التقليدية، البغال والخيول، ولم يغيرها سوى الثورة التعليمية التي استصحبت الثورة التقنية. أصبحت آيرلندا تصدر ما قيمته ٦٠ مليار دولار، وتنافس الولايات المتحدة في إنتاج برامج الكمبيوتر. أؤكد معك على أن الإصلاح يبدأ بالتعليم.

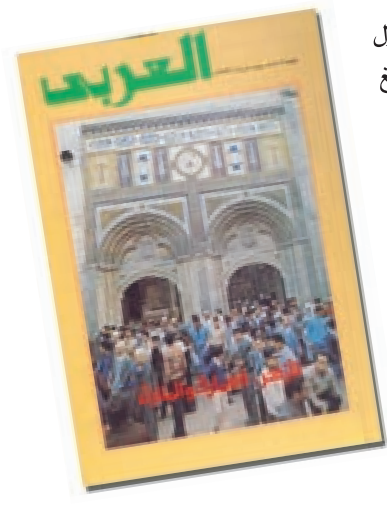
جيبوتي وفرنسا

- نشهد استسهالاً حين الحديث عن مفهوم العولمة، وتبسيطاً لدلالاته، وبعضهم لا ينظر إليه إلا من خلال صورته كأداة غزو ثقافي، كيف لنا أن نتعامل معه كحقيقة يومية ثابتة وبقدر ممكن من الحياد؟

● العولمة واصطلاحاتها التي شاعت حديثاً في حلقات فكرنا وعلمنا، أجد لها معنيين: معنىً رومانسياً يتحدث عن القرية الكونية الواحدة، وعن تبادل المنافع والمصالح، وهذه فكرة على قدر كبير من المثالية. أما الناحية العملية فتنطوي على أبعاد أخرى منها: أن العولمة ثورة اتصال متبادل بين أصقاع العالم، لكنها من جهة أخرى تعكس الهيمنة الاقتصادية، وليس صحيحاً أن الكل يعطي ويأخذ، فعملياً: القوي هو الذي يعطي، ويفرض نمطه، وطريقته في التفكير وخطابه على الضعيف، فلا نستطيع القول بأن جيبوتي تعطي فرنسا مثلاً. نعم.. إن الطريق مفتوح، ولكن لمن؟..

لكننا في المقابل لا نستطيع أن نقول أن العولمة شر، فهي تمثل قنوات إن استخدمت في الخير جنت الشعوب خيراً كثيراً، وإن استخدمت في الشر فستحصد ثمار ما زرعت. وأظن أن المسلمين الآن يحاولون الاستفادة إلى حد كبير من هذه العولمة، من خلال الإنترنت، فعبر هذه الشبكة يمكن الاطلاع الآن على ما كتبه ويكتبه الشيخ يوسف القرضاوي في أي ركن من أركان الكرة الأرضية. إنني ضد أن تغلق عليك بابك وتسب العولمة.

يتوجب عليك أن تنزل إلى الساحة وتحاول توظيفها لصالح معرفة صحيحة أو تبليغ أو تنوير، ودفاع عن حقك وقضاياك، وإحداث ترابط بين المجتمعات الإسلامية. العولمة أفادت الكثير من المغتربين المسلمين والعرب الذين هاجروا عن أوطانهم، فقد وصلتهم ببعضهم مرة أخرى، ومهما كان الرأي في القنوات الفضائية، فلا أستطيع إلا أن أعترف بأنها سبب حقيقي في تواصل المسلمين المتباعدين عن بعضهم بألوف الأميال.



أيام "العربي"

- أنت أحد أعلام الكتابة الصحفية العربية، وكان عملك في مجلة «العربي» مرحلة مثمرة قدمتك مفكراً وكاتباً مقروءاً، هل تحدثنا عن تلك التجربة التي خضتها في الكويت؟ ومن جهة أخرى هل تشخص لنا أثر الصحافة اليوم على تشكيل وعي الأمة؟

● لقد أفادتني تجربة «العربي» كثيراً، وعلى صُعد كثيرة.. أولاً: أن فكرة الهجرة من مصر والنزوح تحت ضغط سياسي إلى دولة أخرى، لم تكن واردة بالنسبة لي، ومن ناحية فإن خبرتي كلها كانت في الصحافة اليومية، لذا فقد أتاح لي الانتقال إلى الصحافة الثقافية الشهرية أن أعمق خطابي الثقافي، ومكنني من تحقيق بعض طموحاتي في أن أجوب أنحاء الدول الإسلامية بهدف إثراء تجربتي ومعرفتي بهذا العالم. ولهذا السبب كان أول الكتب التي أصدرتها من واقع تجربتي في الكويت. وأعتقد أنها كانت غنية على مستويات كثيرة. من ناحية أخرى فإن الصحافة في العالم العربي مختلفة عن الصحافة في الديمقراطيات الغربية مثلاً، فأنا أظن أن تأثير صحافتنا في الرأي العام محدود، فنسبة الأمية عالية في الدول العربية، وبالتالي فالتلفزيون يأخذ الصدارة. ومن ناحية فأغلب الصحف رسمية لا يتاح لها الهامش الكافي للقول والتعبير. وأيضاً فإن صحافتنا تخاطب النخبة ولا تخاطب الرأي العام. ولا أرى أن دور الصحافة يمكن أن يتراجع بالمطلق في مقابل الإنترنت والنشر الإلكتروني، لأن الكلمة المكتوبة تصطحبنا في كل مكان، دون أزرار أو مفاتيح، لكنني أعترف أن هذا الدور لم يعد آمناً بالتأكيد كما هو الحال في الماضي.

أفادتني تجربتي في مجلة "العربي" كثيراً في تعميق خطابي الثقافي، ومكنتني من تحقيق بعض طموحاتي في أن أجوب أنحاء الدول الإسلامية بهدف إثراء تجربتي ومعرفتي بهذا العالم



يشارك فهمي هويدي بفاعلية في جميع المنتديات والمؤتمرات العربية والعالمية

- الندوات والمؤتمرات التي نشهد انعقادها بشكل دوري في عواصمنا العربية، تحمل عناوين مهمة تمس حياة كل مواطن.. لكن السؤال هو أن ما يتبلور من هذه الندوات لا يصل إلى مستهلكيها من فئات المجتمع العريضة، فهناك نوع من القطيعة الواضحة بين مقررات وتوصيات هذه المؤتمرات وبين الشرائح المستهدفة من المواطنين والمهتمين؟

● كثير من المؤتمرات تعقد في الحقيقة لرفع الحرج. والسبب أن الرأي العام العربي تأثيره ضعيف، والمثقفون متفرجون أحياناً، بعضهم يحاول الانسحاب من دوره. وبعضهم التحق واندمج في خطاب الحكومات. والبعض الآخر يحارب من خلال دفاعه عن ما يسمى بـ(المجتمع المدني) وتوسيع هامش الحرية والكلمة. ورغم كل مايقال في هذا الصدد فإنني أرى في تلك المؤتمرات فوائد على صعيدين:

الأول: المساهمة في فهم وبلورة المشكلات، وربما عقد بعضها دون الوصول إلى حلول جذرية، لكنها تسهم في فهم تلك المشكلات فهماً صحيحاً، وكما يقال فإن فهم المشكلة هو نصف الطريق إلى حلها.

أما المستوى الآخر: فهو التفاعل الشخصي بين المثقفين، فهذا لا يتاح دائماً للمثقفين لكنه للسياسيين عادة، والمؤتمرات هي الساحة الوحيدة التي تسمح للمثقفين اليوم في الوطن العربي بالتلاقي، وهذا يمثل إطاراً معقولاً للتفاعل الثقافي بين المثقفين.

أنا ضد أن تغلق عليك بابك وتسب العولمة. يتوجب عليك أن تنزل إلى الساحة وتحاول توظيفها لصالح معرفة صحيحة أو تبليغ أو تنوير، أودفاع عن حقك وقضاياك

أسئلة الانتفاضة

- تشكل الانتفاضة سؤالاً جديداً في مجريات الصراع والسلم مع إسرائيل وفي آفاق مستقبل الشرق الأوسط. كيف ترى الانتفاضة ونتائجها؟ وما هو مصير العلاقة مع إسرائيل في ضوء ما يجري على الأرض الآن؟

● إسرائيل في حقيقتها الراسخة، دولة محتلة ومغتصبة وظالمة، ولا أظن أنه يمكن أو ينبغي أن تقوم علاقة مع إسرائيل طالما بقي الاحتلال واغتصاب الأرض مستمراً، وللأسف فإن إسرائيل وعبر اتفاقيات السلام التي عقدت معها، لم تسع إلى إزالة الظلم ولا إلى المشاركة في صنع سلام حقيقي في المنطقة، ولكنها أرادت أن تضفي شرعية على الاحتلال والتوسع، وأن تكرس الاغتصاب، لذا فإنني لا أرى مجالاً لإقامة أي نوع من السلام، ما دامت تبرهن يومياً على المضي في سياساتها الوحشية.

ولقد أثبت منطق الصراع علمياً أن إسرائيل غير مستعدة للسلام، والأصوات المرتفعة التي حصدها «شارون»، بكل سجله الإجرامي والوحشي يعني أن الرأي العام الإسرائيلي معبأ في هذا الاتجاه، ويعني بشكل آخر أنه ليس مستعداً للسلام. وبالتالي فإن الكلام الآن عن السلام هو تعلّق بسراب. ومن ناحية أخرى، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فالغضب الفلسطيني أمر طبيعي، وهذا هو جذر الانتفاضة. الانتفاضة غضبة، وإذا كانت قد بدأت في عام ١٩٨٧م ضد مذلة الاحتلال، فإن عودتها سنة ٢٠٠٠م تعبير حازم عن أزمة مسيرة السلام وتزييفه وضد الذلّ، ومعنى هذا أن الغضب الفلسطيني سوف يستمر عبر الانتفاضة أو غير ذلك، طالما أن الظلم الإسرائيلي مستمر، ولا يتوقع أحد أن عملية الالتفاف التي تجري من الجانب الإسرائيلي على الانتفاضة، وإجهاضها، يمكن أن توقف بركان الغضب، ربما يهدأ بعض الشيء، ولكننا سنفاجأ بانفجاره مرة أخرى، لأن أسباب الغضب كامنة ومستمرة.

- هل يمكن لتفاعلات الانتفاضة أن تصل إلى حرب ما ، حتى لوكانت محدودة؟

● أعتقد أن الانتفاضة ستعرقل عملية السلام، لكنني لاأظن أنها ستقود إلى حرب، لأن الحرب أكبر بكثير من «شارون» وإسرائيل، خصوصاً وأن دولاً كبرى، مثل الولايات المتحدة وروسيا ودول أوروبا قد شاركت في الإشراف على اتفاقية السلام، ويصعب على هذه القوى الدولية أن تقبل بعودة المنطقة إلى ماكانت عليه، قبل مدريد وأوسلو. لكن فوز شارون يعني استمرار التوتر في المنطقة، وهذه السخونة قد تعبر عن نفسها بعمليات عسكرية محدودة سواء ضد لبنان، أو داخل الأراضي الفلسطينية، الخاضعة للسلطة الفلسطينية، ولكنني أشك في العودة إلى أجواء الحرب، وإعادة نقطة الصراع إلى الصفر مرة أخرى، وكأن كل مابذلته الأمم المتحدة والقوى الدولية الأخرى، كله قد نسف ولم يعد له من أثر على الأرض. ■

الفجر المنتظر

شعر: بهيجة مصري إدلبي*

هو الطفلُ
في يده المعجزات
وفي جرحه
فجرنا المنتظرْ
هو الطفلُ
أكبر منا جميعاً
هو الطفلُ
صرخته من حجرْ
يعانق في مقلتيه الشموس
ويمضي رسولاً لكل البشرْ
يقول: أنا العربي الأصيل
أنا الطفلُ
سرُّ الرؤى والشجون
وتسبيحةٌ
في مداد الفكرْ
فإن مزقوني
وإنْ أحرقوني
وإنْ حقدُهم
فوق دمعي عبرْ
سأطْلعُ
من كل قطرة ماء
وأهطل
من وابلاتِ المطرْ
وأهوي عليهمْ
بصاعق جُرحي
وأجعلْ
من كل جزء حجرْ
فلن يُسكِتوا
صرختي بالرصاص
أنا الطفل صوتي
نذيرُ الخطرْ
أقول: أنا الموتُ
للخائنين
وذاكرتي تستعيد الصورْ
أنا الموتُ
للغاصبين جميعاً
وفي مقلتيّ
موجُ بحرٍ هدرْ
حملتكُ يا قدسُ
وحياً أميناً
يهيم على رحلتي
في السحرْ
فضمي مسافات روحي إليك
وقولي: أنا الطفلْ
سرُّ القدرْ
فلن أبرحَ الأرض
مهما أبادوا
فجذعي هنا
مثل جذع الشجرْ

* شاعرة وكاتبة من سورية

حتمية أم إمكانية!!!

بقلم: د. طه بن عثمان الفرا *

قيل في الماضي أن "الإنسان ابن بيئته". ترى هل تعني هذه المقولة أن البيئة بالنسبة للإنسان، هي بمثابة الوالدين بالنسبة للابن بمدانه بما يسد حاجاته الأساس، ويؤثران على جسمه من حيث النمو بمقدار ما يقدمان له من غذاء كماً ونوعاً، وبالتالي يسهمان في صقل تفكيره وتوجيه سلوكه؟ وفي الحقيقة لقد قدح عدد من الفلاسفة والمفكرين زناد فكرهم وشغلوا أوقاتهم، عبر الأجيال، في أمر تأثير عناصر البيئة على الإنسان ومدى تأثيرها فيه.

يقول الحتميون إن الإنسان يتأثر خَلقياً وخُلقياً بالعوامل البيئية. ففي المناطق المدارية حيث الشمس الساطعة والحرارة الشديدة، تميل بشرة السكان نحو السمرة، في حين يتصف الذين يقطنون المناطق الوعرة أو الصحارى القاحلة بالصبر والجلد والقسوة

وقد انقسم المفكرون إلى فريقين، فريق نادى بمبدأ «الحتمية» وهو ما عرف بأسماء متعددة منها «البيئية» أو «الجيوقراطية» (Geogracy) الذي مفاده أن العناصر البيئية تؤثر في البشر من الناحيتين الجسمانية والسلوكية ويصعب عليهم التأثير فيها، وليس أمامهم سوى الانصياع الأعمى لها. أما الفريق الآخر والذي نادى أصحابه بمبدأ «الإمكانية» أو ما أطلق عليه تعبير «الاختيارية» أو «الاحتمالية» أو «الآنثروبوقراطية» (Anthropocracy) فقالوا إنه بقدر ما يتأثر الإنسان بالحر الشديد، والبرد القارس، والعواصف الهوجاء، والحرائق اللاهبة التي تأكل الأخضر واليابس، والأمواج العاتية، والقحط الشديد إلا أنه يستطيع الوقوف في وجهها ولو نسبياً، ويتعامل معها دائماً بصورة تحد من غلوائها[1]. ومن هذا المنطلق فإننا نجد أنفسنا، في هذه المرحلة من الحديث، أمام معسكرين من المفكرين يرفع أصحاب المعسكر الأول راية «الحتمية» ويرفع أصحاب المعسكر الآخر شعار «الإمكانية». وهكذا نجد أنفسنا أيضاً نتساءل: أي من الفريقين أقرب إلى الصواب أكثر من غيره لكي نلقي بثقلنا إلى صفه؟.

الحتميون

يقول الحتميون إن الإنسان يتأثر خَلقياً وخُلقياً بالعوامل البيئية، ففي المناطق المدارية حيث الشمس الساطعة والحرارة الشديدة تميل بشرة السكان نحو السمرة، في حين يتصف الذين يقطنون المناطق الوعرة أو الصحارى القاحلة بالصبر والجلد والقسوة، بينما يغلب على سكان السهول طباع المرونة والمسالمة، أما الذين يعيشون بالقرب من سواحل البحار والمحيطات والبحيرات، حيث زرقة الماء والسماء تطغى على الألوان



يتميز أهل المناطق الباردة بالدهاء حسب رأي المدرسة الحتمية

@ مستشار بأكاديمية الأمير نايف للعلوم الأمنية.

١- يتكون التعبير Geocracy من مقطعين هما Geo وتعني الأرض و cracy ومعناها السيطرة. أما التعبير الآخر Anthropocracy فيتألف من مقطعين هما Anthro وتعني الإنسان و cracy وتعني السيطرة. وبذلك يكون معنى التعبير الأول «سيطرة الأرض» بكل ما عليها من ظواهر طبيعية من تضاريس ومناخ وغابات وغيرها. في حين أن التعبير الآخر يعني «سيطرة الإنسان».

الأخرى فإننا نجدهم أهل صفاء ووفاء، ويتفقون على رأي واحد مفاده أن البحر بالنسبة لهم هو مصدر الخيرات ولكنه في الوقت نفسه منبع الأهوال. ولا عجب أن نجد هؤلاء الناس متحدين في الأقوال والأفعال. أما سكان المناطق القارسة البرد فإن بشرتهم في العادة بيضاء وعيونهم زرقاء ومن طباعهم الخبث والدهاء.

ثم يأتي الحتميون بأمثلة من التاريخ تؤيد رأيهم، فيقولون إن الفلاسفة الإغريق كانوا من أنصار الحتمية لأنهم قسموا العالم المعروف لديهم آنذاك إلى ثلاث مناطق، وربطوا بأهل كل منها بعض الصفات المادية والمعنوية التي تجعلهم يختلفون عن سواهم. وهذه الأقاليم هي:

١ - منطقة شديدة البرودة، ويتميز أهلها بصفات شتى من أهمها الدهاء.

٢ - منطقة شديدة الحرارة، ومن صفات قاطنيها الخلود إلى الراحة والكسل.

٣ - منطقة معتدلة، مثل دول (حوض البحر المتوسط) التي يعد أهلها أصحاب شجاعة وحب للعطاء وللعلم، وبلاد الإغريق تقع في هذا النطاق. ولا عجب أن نجد أن الفلاسفة الإغريق قد أعطوا لأنفسهم ولبني جلدتهم أفضل الصفات.

وقد كتب كثير من الحتميين مقالات وكتباً في هذا الشأن ومن أهمهم: إلسورث هنتغتون، وفردريك راتزل وإيلين سمبل المشهورة باسم مس سمبل.

الإمكانيون

رد الإمكانيون على الحتميين بأن رقعة معسكرهم في غاية من الاتساع، وتضم بين جنباتها جموعاً غفيرة من المؤيدين والأنصار، وجاءوا بردهم واضحاً على هيئة النقاط التالية:

- إن ما يميز الإنسان عن المخلوقات الأخرى «العقل» الذي حباه الله بقدرات لا حصر لها. وعندما أقام الإنسان حضارته الأولى في الماضي بدأ من نقطة الصفر بالقرب من الأنهار، فحرث الأرض بالمحراث فأثمرت، وسيطر على الفيضانات ببناء الحواجز على جوانب الأنهار فاستقام أمرها وسلم الناس من شرورها، وابتكر وسائل إطفاء النيران أو اتخاذ التدابير اللازمة لعدم حدوثها ومكافحتها والتخلص من آثارها وأضرارها فسلم البشر، ولو جزئياً منها وتنفس الناس الصعداء لأنهم عرفوا أن بإمكانهم درء الأخطار والوقوف في وجهها ولو إلى حين.
- إن عيش الناس في المناطق الجبلية الشاهقة أكسبهم مع

كان الفلاسفة الإغريق من أنصار الحتمية

يقول الإمكانيون إن لون البشرة والشجاعة والكرم والخبث والكسل، وأياً من الصفات الجسمانية أو السلوكية موجودة لدى أعداد هائلة من البشر بغض النظر عن تأثير العوامل المحيطة



السكن بالقرب من البحار والشواطئ، يخلق بيئة أكثر انفتاحاً نتيجةً لسهولة الاتصال والاندماج بين الشعوب والأمم

ساعدت ابتكارات العقول البشرية الإنسانية على سبر أغوار البحار، واختراق الطبقات العليا من الجو حيث يندر الأكسجين أو ينعدم، اللهم إلا من كمياته التي يحملونها مضغوطة على ظهورهم أو يصطحبونها معهم في مركباتهم الفضائية

مرور الزمن، صفات جسمانية مكنتهم من التعايش مع ما يلم بهم من مشكلات وأضرار وساعدتهم، كذلك، على التعامل مع ما يحيط بهم من ظروف قاسية فطاب عيشهم. أما العيش في أقاليم تتميز بشدة الهجير أو حدة الزمهرير فقد أصبح ممكناً عندما ابتكر الإنسان وسائل التبريد والتدفئة فاستطاع العيش في ربوعها، وها هو اليوم يرتاد المناطق القطبية الباردة ويعيش في كنفها، ويلبس الفراء ويبني بيوتاً من الثلج ويتناول كميات هائلة من الدهن، ويستخدم الغاز الطبيعي كوقود من أجل الدفء وغلي الماء وطهي الطعام، ووسيلة نقله «الزلاجة» التي تجرها الكلاب على الثلج لمسافات طويلة، ويمد لحم عجل البحر الإنسان وكلابه بمصادر الغذاء وبالتالي القوة والحيوية والقدرة على الإنتاج والحركة والقدرة على التكاثر.

– ويزيد هؤلاء الإمكانيون بأن الإنسان قد استخدم عقله فركب الجاريات في البحر، واستطاع بواسطة محركاتها القوية أن يمتطي سنام الأمواج العاتية، ويبحر بها عكس اتجاه الرياح الشديدة والعواصف الهوجاء، وتمكن بفضل استخدام الحراب والشباك صيد الحيوانات البحرية فأكل منها ما أكل وحفظ منها ما حفظ إما عن طريق التمليح أو التجفيف في الشمس أو تعريضها للدخان.

وردَّ هؤلاء على ما استشهد به الحتميون من مسألة تقسيم العالم إلى أقاليم مناخية وتميز أهل كل منها بصفات خَلقية وخُلقية نتيجة لتأثيرات العناصر البيئية المتباينة عليهم، قائلين إن لون البشرة والشجاعة والكرم والخبث والكسل، وأي من الصفات الجسمانية أو السلوكية موجودة لدى أعداد هائلة من البشر بغض النظر عن تأثير العوامل المحيطة. أما عن تأثير البشر في كثير من تلك العناصر فإنه بلا شك ملموس ولكنه بنسب متفاوتة. وأضافوا قائلين بأن التباين في هذه الصفات يوجد بين أفراد الأسرة الواحدة الذين يعيشون تحت سقف واحد، وفي ظل ظروف طبيعية وبشرية واحدة.

الإنسان بين حتمية بيئته البشرية وإمكانيتها

عالجت نظريتا «الحتمية» و«الإمكانية» تصرفات الإنسان وردود فعله وصفاته الجسمانية والمعنوية نتيجة لتأثره بالظروف الطبيعية البشرية، بما في ذلك عناصر المناخ وتضاريس البلاد وتوزيع الغطاءين الطبيعيين النباتي والحيواني، ومدى تأثيره فيهما. وبما أن الإنسان تحيط به بيئة بشرية متفاعلة مع ما يأتي به كل منهم من أفكار ومبتكرات وإنجازات، فإن بني البشر، جماعات وأفراداً، يتأثرون بلمسات وبصمات هذه البيئة ويؤثرون فيها، شئنا ذلك أم أبينا. صحيح إن التأثر بشيء ما أو التأثير فيه يكون بطيئاً في بداية أمره ولكنه يكون تدريجياً ويكون له مؤيدوه ومعارضوه في الوقت نفسه.

ومن أجل تأكيد صحة ما قيل في هذا الصدد دعونا نأخذ مثالاً من أوساط الصناعات الحربية منذ نشأتها. فالإنسان ابتكر مدية منذ أمد طويل على هيئة شظية من الصوان ليبقر بها بطن أخيه الإنسان، ثم ابتكر الخناجر والفؤوس والسيوف والرماح والسهام المعدنية وغيرها ليشج به رأس خصمه. وأخيراً جاءت صناعة البارود والطائرات والصواريخ وغيرها لتستخدم في إزهاق الأرواح وتدمير الممتلكات، وانتصرت أقوام وانهزمت أخرى. ولكن المنتصر لم يبق منتصراً ولا المهزوم انتهى أمره إلى أبد الآبدين. بالطبع «لكل قاعدة شواذ»، فهناك أناس هزموا ورضوا بالهزيمة وذهبت ريحهم وأصبحوا في عداد البائدين، وذلك نتيجة لتدمير عناصر قوتهم البشرية والمادية والقضاء على آمالهم وتطلعاتهم المستقبلية.

وهكذا يبقى المجال مفتوحاً دائماً أمام الإنسان لابتكار أسلحة الدمار ووسائل نقلها وإطلاقها وتطويرها. مما يدفع بالطرف الآخر المنافس إلى ابتكار أسلحة مضادة لتلك الأسلحة الموجهة إلى أهداف معلومة داخل دولة ما كالصواريخ، وأخرى مضادة للدبابات والطائرات المغيرة. ومن الأشياء التي تؤكد هذه الحقيقة ابتكار الروس لصواريخ طالت طائرات التجسس UT الأمريكية في بداية الستينيات التي استباحت الأجواء الروسية أكثر من مرة، ولم تكتشفها أجهزة الرصد الروسية آنذاك.

كما ساعدت ابتكارات العقول البشرية الإنسانية على سبر أغوار البحار، واختراق الطبقات العليا من الجو حيث

استطاع الإنسان بذكائه العيش في المناطق القطبية واستخدام الزلاّجة التي تجرها الكلاب على الجليد



سيبقى المجال دائماً مفتوحاً أمام الإنسان لابتكار أسلحة دمار جديدة ثم أسلحة دمار مضادة.. في حلقة مفرغة لا نهاية لها



يندر الأكسجين أو ينعدم، اللهم إلا من كمياته التي يحملونها مضغوطة على ظهورهم أو يصطحبونها معهم في مركباتهم الفضائية. وحتى أولئك الذين يعيشون في المرتفعات الشاهقة مثل جبال الهملايا وجبال الإنديز حيث تنخفض نسبة الأكسجين في الهواء، فإن الله سبحانه وتعالى زودهم بأقفاص صدرية واسعة لكي تتسع لرئاتهم الكبيرة التي تساعد أصحابها على الاستئثار بأكبر كمية من الهواء، ومن ثم أكبر كمية من الأكسجين اللازم للحياة.

إيجاد صيغ جديدة للتعايش مع الظروف الطبيعية

إن أوار حرب العقول وما ينجم عنها من مبتكرات لن يتوقف ما بقيت هناك حياة مناسبة على سطح هذا الكوكب، وما دامت على أديمه قلوب تنبض بالحياة. وأصحاب هذه العقول لن يترددوا في امتطاء صهوة كل مركب صعب من أجل ابتكار وسائل وصيغ مناسبة لتعامل الإنسان مع إفرازات وآثار بيئتيه الطبيعية والبشرية مهما عزّ الطلب وعظُم الثمن.

الثقة بالنفس وحتمية النصر أو إمكانيته

عندما يتقابل جيشان على أرض معركة ما وتدور رحى الحرب بينهما فإما أن يخرج أحدهما منتصراً والآخر مهزوماً، وإما ألا يكون هناك منتصر أو مهزوم أو تبقى الحرب سجالاً بينهما. وعلى كل حال فإن للنصر مسوغات ومرجحات في حين أن للهزيمة علامات، ولكن على الرغم من ذلك فإن التخطيط السليم والاستعداد المبني على أسس موضوعية والتفوق والثقة بالنفس بعد الثقة بالله عز وجل، يجعل الانتصار لمن يتحلون بهذه المميزات أمراً محتوماً.

إن حتمية انتصار جيش ما على آخر في أية معركة غير وارد حتى لو توافرت لذلك الجيش كل الأسباب والإمكانات اللازمة، ونفس الشيء ينطبق على الطالب الذي يستعد للامتحان ويعمل كل ما في وسعه من أجل أن يحوز على قصب النجاح، فإن حتمية نجاحه غير مضمونة أحياناً. وهناك أمثلة كثيرة مشابهة ولكنها تبقى احتمالية الطابع.. وعلى المرء أن يعمل وأن لا يفكر كثيراً في النتائج إذا ما أخذ بالأسباب ولكل مجتهد نصيب، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

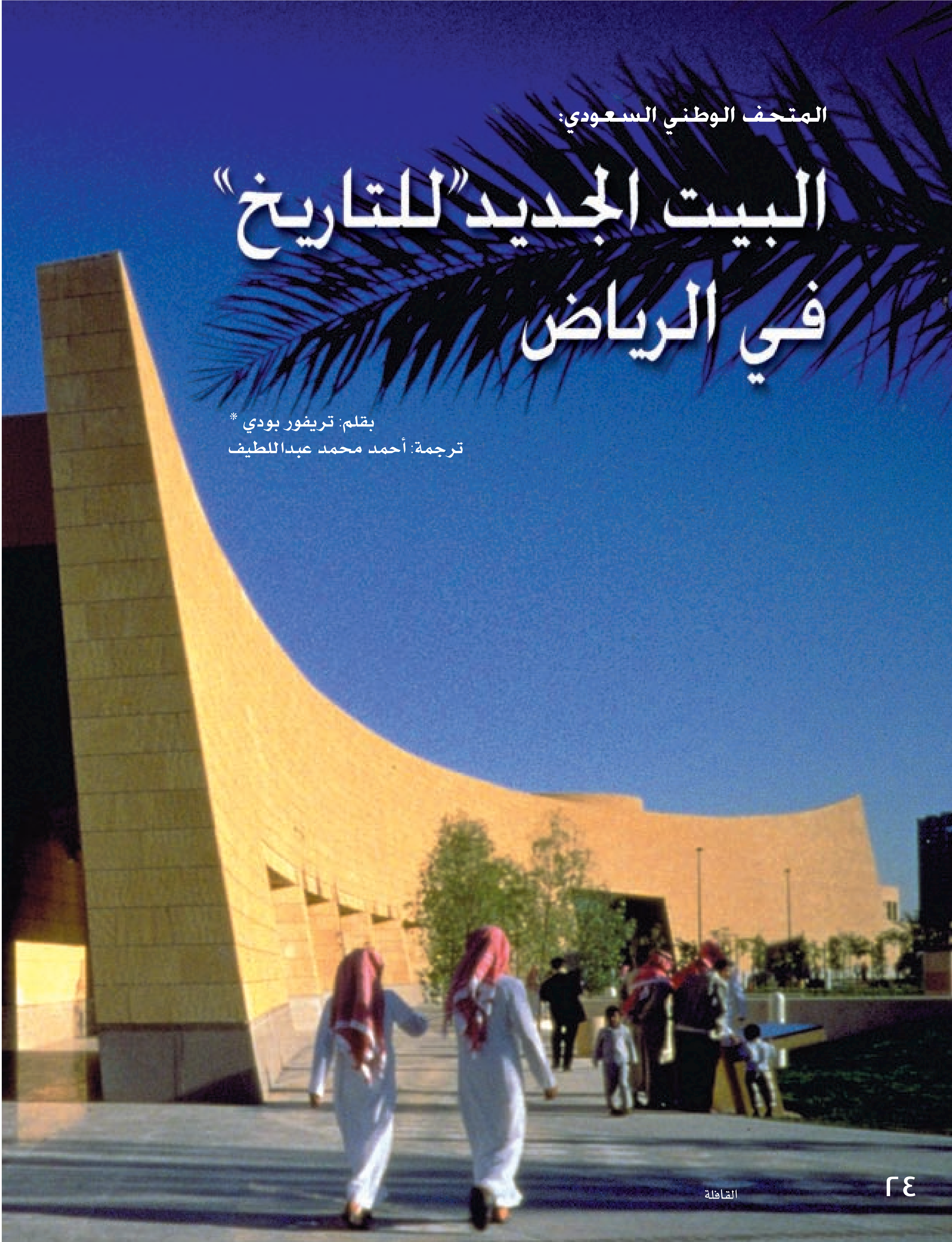
الخاتمة

في نهاية بحثنا لاستجلاء خلاصة أفكار ونظرات كل من الحتميين والإمكانيين تجاه مدى تأثر الإنسان بسطوة عناصر البيئتين الطبيعية والبشرية، وانصياعه لهما وإمكانية تأثيره فيهما، نترك للقارئ الكلمة الفصل في الحوار الصامت الذي أخذ مجراه بين الفريقين. أما بالنسبة لكاتب المقال فإنه لو قدر له أن يلحق قسراً بمعسكر الحتميين ومن يحذو حذوهم فإن ذلك لن يثنيه عن عزمه في اغتنام أقرب فرصة ليكون جندياً مجهولاً يسير في ركاب الإمكانيين ويحارب بسيوفهم ولو كان دون ذلك خرط القتاد. ■

أهم المراجع

- Huntington, Ellsworth, Mansprings of Civilization (New York: John Wiley & Sons Inc., 1964).
- Kasperson, Roger E. & Minghi (Editors) The Structure of Political Geography (Chicago: Aldine Publishing Company, 1969).
- Pound, Norman J. G., Political Geography (New York: McGraw - Hill Book Company, 1972).
- Preston, James, Geography of Man (Walthum, Massachusetts: Blaisdel Publishing Company 1966).

* صور الموضوع: مطابع التريكي



المتحف الوطني السعودي:

البيت الجديد "للتاريخ" في الرياض

بقلم: تريفور بودي *
ترجمة: أحمد محمد عبداللطيف



تأخذ واجهة المتحف الوطني السعودي شكل كثيب رملي متحركاً مما يجعلها تعطي إحساساً بالألفة والدفء ينعكس داخل المتحف الذي يتسم بالحيوية والوقار

تصوير: أجون موريانا

* كاتب كندي عالمي متخصص في مجال الهندسة المعمارية والحضارات، قام بالتدريس في عدة معاهد للهندسة المعمارية في أمريكا الشمالية.

يشتمل تاريخ الهندسة المعمارية على طرز معمارية يرمز كل منها لزمان ومكان معينين . ففي أواخر العشرينيات كانت أبراج مكاتب "آرت ديكو" في أمريكا الشمالية تمثل التفاؤل الذي واكب النمو الاقتصادي غير المسبوق آنذاك. وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت محطات السكك الحديدية في أوروبا، تمثل قمة التكنولوجيا الصناعية المزدهرة، كما كانت تعبر عن روح التجوال التي سادت في تلك الفترة. وفي العالم الإسلامي كانت الجوامع مثالاً حياً للروح الإسلامية السامية والقيم الجمالية المعمارية التي تكمن وراءها وحدة الهدف والعقيدة. أما في أوروبا فقد كانت الكاتدرائيات في أواخر القرون الوسطى رمزاً للمعتقدات الدينية والنسيج الاجتماعي المتمازج.

غالباً ما يصاحب افتتاح متحف ثقافي تاريخي في أية مدينة من المدن الكبرى في كل أنحاء العالم، درجة من الترقب للمعالم المعمارية التي سينطوي عليها المتحف الوليد

يقع على عاتق المتاحف في هذا العصر عبء التعبير عن ثقافة العصر من خلال هندستها المعمارية، ولنأخذ مثالاً على ذلك متحف فرانك جيهري ڤاقنهايم في مدينة بيلبو الإسبانية، ومتحف ريتشارد ماير بولاية لوس أنجيلوس الأمريكية، وما حظيا به من اهتمام من جانب العامة والنقاد، وهذان ما هما إلا مثالان حديثان للمتاحف الشهيرة. فافتتاح متحف ثقافي تاريخي في أية مدينة من المدن الكبرى في كل أنحاء العالم دائماً ما تصاحبه درجة من الترقب للمعالم المعمارية التي سينطوي عليها، كما يحظى بقدر من الاهتمام والنقد قد لا يلاحظ عند بناء مساكن أو مبان حكومية جديدة.

جالت هذه الأفكار بخاطري وأنا أتجول في شوارع وطرق مدينة الرياض، فقد كان هذا أول يوم لي في المملكة التي حضرت إليها كمراسل معماري لجريدة ومجلة كندية بمناسبة افتتاح المتحف الوطني السعودي.

وكانت هذه من المرات القليلة خلال تاريخي المهني كناقد معماري التي أقوم فيها بزيارة مبنى دون أن أرى صوراً فوتوغرافية له. وعندما مررت بمباني المكاتب والمباني السكنية والمستشفيات ومراكز التسوق ومجمعات المباني الحكومية في الرياض اتضح لي أن الفن المعماري الحديث يلعب دوراً كبيراً بدرجة غير معتادة في الحياة المدنية السعودية، نظراً لوجود هذا الكم الهائل منه في مدينة تم توسعتها وإعادة بنائها خلال فترة العقود الثلاثة الأخيرة فقط.

اقتربنا من المتحف الوطني من الجهة الخلفية، حيث كانت ساحة انتظار السيارات مظللة بسقف نصف شفاف يذكّرني أسلوبه بصالة وصول الحجاج في مطار جدة التي حازت على جوائز دولية فريدة. وكان هناك هيكل كبير على هيئة أسطوانة بارزة فوق كتل الحجر الجيري المستطيلة ذات اللون الأصفر المائل للبني التي استخرجت من المحاجر المحلية والتي شيد بها المتحف . سرت حول المتحف باتجاه جهته الأمامية، التي يواجهها مركز الملك عبد العزيز التاريخي، و«دارة الملك عبد العزيز للأبحاث والمحفوظات»، وقصر «المربع» الذي تم تجديده . وعند اقترابي لاحظت أن الحجر الجيري مزخرف بأشكال متموجة بلون بني فاتح وبرتقالي وقشدي رؤيته تسر الناظرين. ثم اتجهت يساراً بمحاذاة جدار مقام من هذه الحجارة، لأصل إلى ممر مظلل طويل ضيق يشبه الأخدود، تهب عليه نسمات عليلة، ويمر من خلف واجهة المتحف المرتفعة المقوسة التي تعد أكثر معالم المتحف تميزاً . وقد كان هذا الممر المعد من الحجر الجيري المصقول هو بمثابة المدخل الأكثر ملاءمة للمعرض، فبالإضافة إلى جماله فإنه يمتاز بنسماته الباردة وظلاله ذات الأشكال الهندسية المنتظمة التي تشكلها العوارض الخشبية المتقاطعة في سقفه.

وقبل دخولي إلى المتحف خرجت إلى المتنزه وإلى حدائق الرياض المزينة المجاورة التي امتلأت بالأشجار المزروعة حديثاً . وعلى الجانب الآخر من تلك الحدائق توجد «دارة الملك عبد العزيز»، وهي مركز المتحف الجديد المخصص لسجلات وأعمال ووثائق جلالة الملك عبد العزيز، رحمه الله، والذي قام بتصميمه المهندس المعماري الأردني راسم بدران، وتم إنشاؤه في الوقت نفسه الذي أنشئ فيه المتحف الوطني . وقد قام هذا المهندس أيضاً ببناء مجمع «قصر الحكم» الموجود في منطقة وسط المدينة التاريخية . وعلى خلاف المتحف الوطني، فإن إنشاء دارة الملك عبد العزيز اعتمد على أساليب معاصرة مستمدة من الأشكال التقليدية التي نجدها في مباني نجد المقامة من الطوب. وكنت أتوقع أن أرى شيئاً مشابهاً لذلك في المتحف الوطني، على اعتبار أن مهمة المتحف تتمثل في ترجمة التاريخ الثقافي السعودي لمواطني المملكة ولضيوفها الأجانب.

لكنني عندما التفت ونظرت خلفي إلى واجهة المتحف الوطني أدركت أن مفرداته المعمارية لا ترتبط بالمباني التاريخية، ولا تنطوي على الأساليب التقنية المتطورة التي



قارب من منطقة ساحل البحر الأحمر يحمل شباك الصيد، فيما يبدو خلفه نموزج لأحد المباني الحجرية لمنطقة عسير، وذلك كجزء من المعروضات المجسدة لأساليب الحياة الماضية التي يحتويها المتحف

تصوير: محمد شبيب



أولى قاعات العرض الرئيسة التسع في المتحف، وهي مخصصة لجغرافية شبه الجزيرة العربية والتجمعات السكانية الأولى فيها. ويركز المتحف في مختلف عروضه على التثقيف وليس على مجرد عرض القطع الأثرية، كما أن جميع الشروحات للمعروضات تقدم باللغتين العربية والإنجليزية

لا يقتصر الجناح الإسلامي على تغطية الفترات التاريخية الرسمية حسبما تحددها الأحداث السياسية فقط، وإنما يتناول أيضاً كل ما يتعلق بالتجارة والطعام والملابس والمساكن والحِرَفْ والفنون الشعبية

تكثر من استخدام الزخارف والطرز المعمارية الماضية، والتي تتجلى بوضوح في بناء دارة الملك عبد العزيز . فواجهة المتحف الوطني تتسم بالبساطة والتأثير الهادئ، بمنحناها الذي تجلى على شكل قوس هندسي طويل وبسيط، والذي تم تنفيذه بصورة طبيعية كما لو كانت غير مقصودة، والذي يوحي بالحركة والسرعة ويعطي انطباعاً بالرقة بالرغم من ضخامة المبنى. وبالإضافة إلى صالة العرض الأسطوانية الشكل، تبرز أيضاً «قاعة التوحيد» بسقفها المسطح لتمنح المتحف لمسات تاريخية مميزة.

ويكتسب المتحف من الخارج نوعاً من الوقار مما يعطي المشاهد انطباعاً بأنه سيجد بالداخل ما يبعده لفترة بسيطة عن الحركة الدائرة في الخارج، والتي تعج بها مدينة الرياض النابضة بالحياة . ولا يتسم تصميم المبنى بالطموح الزائد، ولكنه تصميم يخلو من الارتباط بزمن معين، بما يتناسب مع مؤسسة يفترض أن يصل عمرها الافتراضي إلى نحو ٣٠٠ عام، والتي تحوي بين جنباتها جميع فترات التاريخ السعودي. وعندما نظرت إلى هذا المنحنى عن قرب، شعرت بأن هناك شيئاً مألوفاً في تصميمه الأنيق، ولكن قريحتي لم تسعفني بالتشبيه الذي يعبر عن ذلك . واتضح لي بعد ذلك أن التعرف على منبع هذا التصميم قد يكلفني الانتظار لعدة أيام، بل والتجول مع المهندسين الذين وضعوه لعدة أيام في الصحراء حتى أفهم أصل هذا التصميم.

أما في داخل المتحف فتسود السمات نفسها التي ترمي إلى عدم الإبهار، مما يعطي المبنى انطباعاً بالعظمة والألفة، وهو إنجاز جدير بالاحترام لمبنى يغطي مساحة تقدر بنحو ٣٦٤٢١م². وفي ساحة المدخل يجد الزائر مساحة كبيرة من الأرضية المغطاة بالرخام اللامع، وهذه الساحة تبقى مفتوحة على مدى الأربع والعشرين ساعة، حتى عندما يغلق المتحف أبوابه، كما ستستخدم كمصلى في مناسبات معينة . وتتدلى من السقف المرتفع رايات ملونة على ارتفاعات متسلسلة تقلل من الإحساس بكبر المساحة وتكسب المكان بعداً بشرياً، وفي الوقت نفسه تساعد الزائر على التعرف على تفاصيل محتويات المتحف . وبعد ساحة المدخل مباشرة يوجد الجناحان الرئيسان في المعرض، يختص أولهما بفترة ما قبل الإسلام والآخر بالفترة التي تلته، وقد بني كل منهما حول نموذج واحة ريفية عامرة بالخضرة والمياه.

ويبدأ الجناح الأول بعرض جيولوجيا شبه الجزيرة العربية وتاريخها الطبيعي، ثم ينتقل من خلال قاعات العرض المختلفة الأشكال والمساحات والإضاءة، إلى التجمعات العمرانية الأولى وطرق التجارة والفنون والحرف وأنماط الحياة اليومية خلال فترات ما قبل التاريخ وحتى أوائل القرن السابع الميلادي . ويتضح للزائر على الفور أن هذا المعرض يختلف تماماً عن المعارض الأخرى الموجودة في الشرق الأوسط، حيث أن التركيز في المتحف الوطني السعودي ينصب على التثقيف أكثر من مجرد عرض الأشياء، فالشروح على المعروضات، سواء باللغة العربية أم الإنكليزية، كثيرة وحسنة الصياغة، وقد نظمت بطريقة تتيح للجميع، بما فيهم غير المتخصصين، فهم التاريخ بسهولة ويسر.

ويفصل بين هذين الجناحين نموذج معماري يعد من أهم المكونات المعمارية للمتحف، يبدأ بنفق ملتوٍ مظلم يمثل فترة الجاهلية، وينتهي بسلم متحرك يصعد بالزوار إلى منطقة ذات جدران بيضاء تشرق بضوء النهار، وتمثل فترة التنوير الروحي، وهي فترة بزوغ الإسلام . وتنتهي هذه المنطقة بدورها إلى غرفة مضيئة تكاد تكون خالية من الأثاث، يوجد في منتصفها صندوق زجاجي به مخطوطة يدوية من القرآن الكريم، وهنا أيضاً لا يتم التركيز على هذه المخطوطة كمثال تراثي قديم لأحد المدارس الفنية، بقدر ما هو تركيز على ما يرمز إليه هذا الكتاب، وهو نزول الوحي بكلام الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم.

وتقود هذه الغرفة إلى جسر يبلغ طوله نحو ٤٠ متراً، يربط جناح ما قبل الإسلام بجناح ما بعد الإسلام. والجدار الأيمن لصالة مدخل هذا الجناح مغطى بالسيراميك مما يضفي عليه ضياءً وقوة، بينما تنبعث موسيقى خافتة وأصوات أطفال تعلو كلما تقدمت بصورة مؤثرة، حيث يرمز ذلك إلى هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى يثرب (المدينة المنورة)، التي تمثل بداية الحكم الإسلامي.

وفي تعليقه على ذلك، يقول عبد الرحمن السري، مدير التطوير الثقافي والعمراني في الهيئة العليا، لتطوير مدينة الرياض: «إن قصة الهجرة النبوية الشريفة عنصر أساس في تكويننا وتاريخنا الثقافي لذا فهي تدخل في لب تصميم المتحف . فهذه القصة تتيح لنا أن نشرح للعالم وحدة الآراء السياسية والدينية في تاريخ أهل البلاد». وتنتهي صالة المدخل بقاعة عرض كبيرة خاصة بتاريخ الحج والحرمين الشريفين في مكة والمدينة.

وكما هو الحال في الجناح الأول، لا يقتصر الجناح الإسلامي على تغطية الفترات التاريخية الرسمية حسبما تحددها الأحداث السياسية فقط، وإنما يتناول أيضاً كل ما يتعلق بالتجارة والطعام والملابس والمساكن والحرف والفنون الشعبية. وقبل الوصول إلى «قاعة التوحيد» توجد واجهات لنماذج معمارية تمثل الأساليب المعمارية السائدة



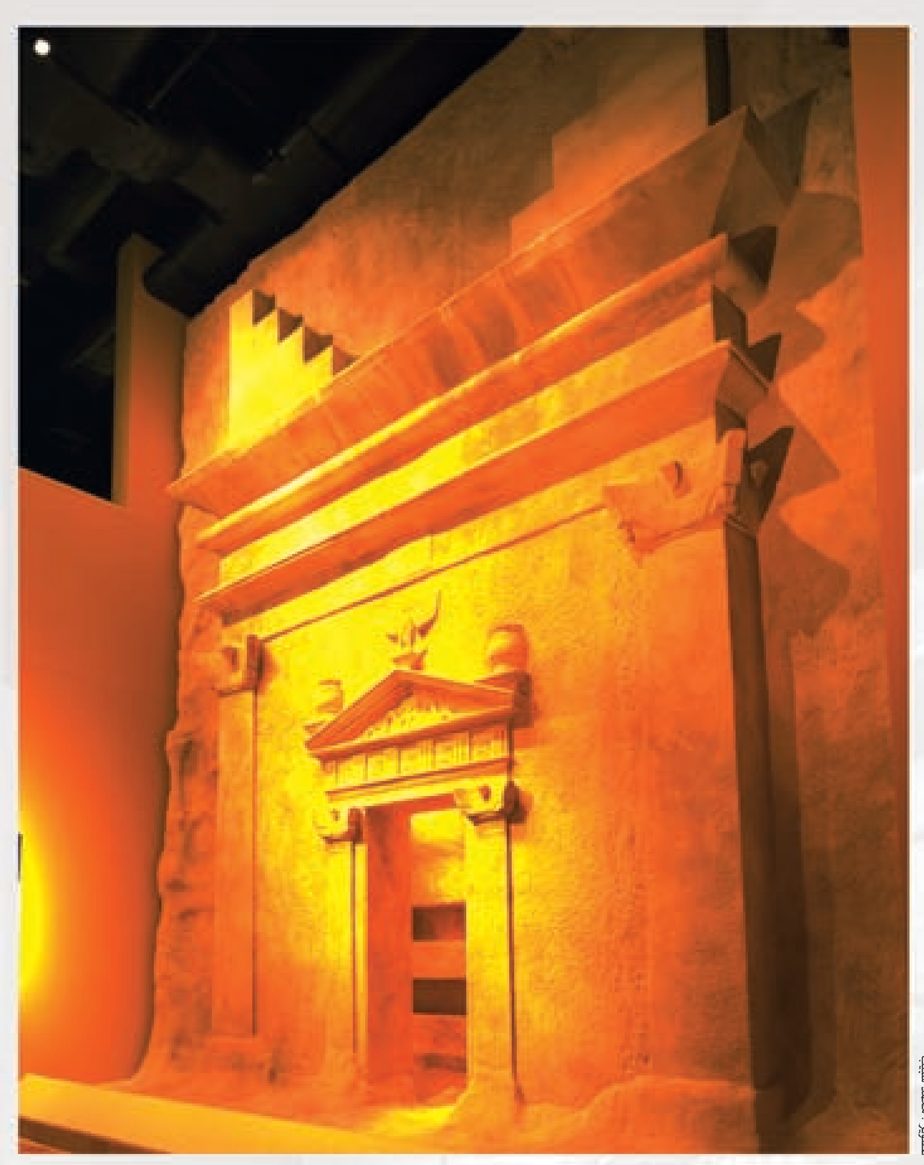
بساطة التصميم المعماري هي السمة البارزة في
أعمال المهندس «ريموند مورياما» المعمارية، والتي
تتمثل في الخطوط الواضحة والجدران الخالية
من الزخارف، التي تجعل تركيز زوار المتحف منصباً
على محتوياته وليس على المبنى نفسه

تصوير : أجون موريانا

"عندما التفتُّ ونظرت خلفي إلى واجهة المتحف الوطني، أدركت أن مفرداته المعمارية لا ترتبط بالمباني التاريخية، ولا تنطوي على الأساليب التقنية المتطورة التي تكثر من استخدام الزخارف والطرز المعمارية الماضية"
تريفور بودي

في المناطق الرئيسة في المملكة، وهي الحجاز وعسير ونجد والمنطقة الشرقية، حيث تستخدم عروضٌ بالصور المتحركة في كل منها لتوضيح الفنون والحرف التقليدية في كل من تلك المناطق بصورة تجعل هذا الجزء أكثر أجزاء المعرض حركة وحيوية. أما في داخل «قاعة التوحيد» فإن التصميم المعماري والصور الفوتوغرافية واللوحات والرايات وعروض الفيديو والليزر، له دور مهم في تسلط الضوء على تأسيس المملكة الحديثة.

وبعد عدة أيام من جولتي في المعرض شاركت في رحلة في وقت الشروق قام بها كبير المهندسين المعماريين للمتحف المهندس «ريموند مورياما» لمنطقة الكثبان الرملية الحمراء غربي الرياض، وكان طريق الرحلة هو نفسه الطريق الذي سلكه هذا المهندس قبل نحو عامين بعد فترة قصيرة من إسناد مهمة تصميم المتحف إليه. جلس مارياما، الذي يناهز السبعين عاماً، القرفصاء بالقرب من حافة الكثيب الرملي، وأخذنا نتأمل الرياح وهي تنفث أشكالاً دائرية متموجة في الرمال المتوهجة، ثم التفت مارياما إليَّ وسألني: «هل ترى الآن كيف واتتنا فكرة تصميم المتحف؟»



تصوير: محمد شبيب

يحتوي المتحف على مجسمات بالحجم الطبيعي مما يتيح الفرصة للزوار بالتعرف على التاريخ المعماري للمملكة دون الحاجة إلى نقل الأعمال المعمارية الأثرية من مواقعها الأصلية، وذلك باستخدام الصور ثلاثية الأبعاد، وتوجد مقابر الأنباط التي يمثلها هذا النموذج في مدائن صالح

كانت هذه هي مهارة استنباط الطبيعة التي اشتهر بها «موريياما» في موطنه الأصلي كندا كمصمم معماري قادر على إنشاء مبانٍ جميلة تتسم بدرجة عالية من البساطة تجعلها في أحيان كثيرة لا تلقى حقها من التقدير. وفيما كنا نقترب من قمة أكبر كثيب رملي، لم يكن «موريياما» يتحدث عن المتحف، أو حتى عن المنظر الطبيعي الخلاب حولنا، وإنما كان يتحدث عن الخبرات التي تعرض لها في طفولته خلال الحرب العالمية الثانية. فعندما هاجم اليابانيون ميناء «بيرل هاربور» الأمريكي قامت الحكومة الكندية بمصادرة منزل عائلته ومتجر الأدوات الذي كانوا يملكونه في «فانكوفر» في كندا، وتم ترحيله مع أقاربه وعدد آخر من الكنديين من أصول يابانية إلى معسكر احتجاز. ونظراً لوجود والده في معسكر آخر، فقد كان على ريموند موريياما، الابن الأكبر الذي كان يبلغ آنذاك الثالثة عشرة من العمر، أن يعول والدته وإخوته من خلال عمل شاق التحق به، وكان يكسب منه خمسة سنتات في الساعة. وفي واقع الأمر فإن مستقبله المهني في مجال المعمار بدأ في هذا المعسكر النائي، حين قام ببناء حمام عام ومنزل من الشجر ليسكن فيه.

ويرى ريموند موريياما أن هذه التحديات التي واجهها في مرحلة مبكرة من عمره، هي التي شكلت شخصيته القوية المقترنة بهذا الحس المرهف، وهما صفتان كان لهما دور كبير في نجاحه في حياته المهنية. وكانت أول مهمة كبيرة

يتولاها هي المركز الثقافي الياباني في تورنتو الذي أنشئ في عام ١٩٥٨م، وهو عبارة عن سرادق من الخرسانة يتسم بقدر كبير من الحداثة ومقام في وادٍ ضيق، وقد اعتبر واحداً من أحسن المباني التي شيدت في تلك المدينة خلال عقد كامل، ثم يأتي مركز سكاريورغ المدني في أونتاريو، الذي يضم مكاتب حكومية ومكتبة ومحال تجارية ومتنزهاً كبيراً مسقوفاً، وكان مصدر إلهام لا حصر له لعدد من المباني في ضواحي المدن في كندا والولايات المتحدة. وبعد ذلك بعدة أعوام، جاء مركز «أونتاريو العلمي»، الذي يعد واحداً من أوائل المتاحف العلمية التي يسمح فيها للزوار بلمس المعروضات. وفي عام ١٩٩٥م نال متحف باتا للأحذية الذي أقامه على جائزة مدينة تورنتو للتصميم المعماري الحضري. وفي أواخر عام ١٩٩٦م كان سجله المهني قد أصبح باهراً بدرجة جعلت الوفد السعودي الزائر يدرج اسم شركة «مورياما وتشيما للهندسة المعمارية» بين الشركات الأربع التي وجهت إليها الدعوة للتنافس على إقامة المتحف الوطني في الرياض.

وبرغم الأثر الكبير الذي يتركه المتحف الوطني على زوّاره، فإن العمل في إنشائه، أي إقامة المبنى ومجموعات المعروضات وإعداد العروض، لم يستغرق سوى ٢٦ شهراً، حيث وضع العاملون نصب أعينهم دوماً التاريخ النهائي لاستكمال العمل، وهو يناير ١٩٩٩م، موعد الاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس المملكة. ومقارنة بهذا الإنجاز، فإن المعماري البريطاني جيمس ستيرلنق استغرق اثني عشر عاماً في بناء متحف «ستآتسقالري» في مدينة شتوتغارت في ألمانيا، وهو المتحف الذي ينسب له الفضل في ظهور التوجه الحالي لإنشاء المتاحف ذات التصميم المعماري الطموح، والذي اكتمل بناؤه في عام ١٩٨٤م. كما استغرق بناء متحف «مايرز جيتي» الفترة نفسها تقريباً، بل إن إضافة بعض التوسعات في المتاحف القائمة قد يستغرق أكثر من ٢٦ شهراً في تصميمها وإنشائها، فما بالك بإيجاد متحف جديد لم يتوافر له من قبل موظفون أو معروضات.

وتعود فكرة تصميم المشروع، من الناحية النظرية على الأقل، إلى عام ١٩٨٣م، عندما كان المهندسون المعماريون في الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض يفكرون في كيفية جذب الناس بصورة أكبر للمنطقة المحيطة بقصر المربع، الذي شيده جلالة الملك عبد العزيز - رحمه الله - بالطوب عام ١٩٣٢م. وفي عام ١٩٨٩م أعدت الهيئة خططاً بمساعدة أجهزة الكمبيوتر لإنشاء «منطقة تراثية» شرق القصر وجنوبه، تضم مكتبة وحدائق عامة ومعالم أخرى، على أن يتم في إطار المشروع نفسه إعادة بناء دارة الملك عبد العزيز وإقامة متحف. وقد سبق للهيئة أن أشرفت على إنشاء الحي الدبلوماسي في الرياض، وعدد آخر من مشاريع الإنشاء والتخطيط في أنحاء العاصمة. وعلى الرغم من أن حرب الخليج في عام ١٩٩١م أدت إلى تأخير عمل الهيئة، إلا أنه بحلول عام ١٩٩٤ كان اسم الحي التراثي قد تغير إلى مركز الملك عبد العزيز التاريخي مع ما يرافقه من حدائق ومتنزهات عامة.

ويقول عبدالرحمن السري معلقاً على ذلك: «إن فكرة المساحات الخضراء المدمجة نشأت مع فكرة إنشاء المشروع ككل، وهذه المساحات تعد أساسية لدمج المجمع التراثي في الحياة اليومية للمدينة».

ومع اكتمال دراسات ما قبل التصميم، قام فريق متخصص بجولات لزيارة العديد من أفضل متاحف العالم التي أنشئت خلال العقدين الأخيرين، وذلك قبل البدء في تصميم المشروع. ووضعت قائمة بأسماء المصممين الذين يمكن إسناد المهمة إليهم، وتم اختيار أربعة منهم على النحو



تصوير: محمد شيبة

تزدان جدران الممر المنحني في المتحف الوطني السعودي بصور تاريخية عن الحج

صُمم المتحف الوطني ليتوافق مع التغيرات التي تحدث على مدى التاريخ، خاصة في ظل استمرار تطور البحوث المعمارية، وتقديم مؤرخي الحضارات لوصف أكثر دقة للحياة في شبه الجزيرة العربية منذ قديم الزمان

التالي: أولاً: شركة «سايت» ومقرها في مدينة نيويورك، وهي الشركة التي قامت بتصميم الخيمة السعودية في معرض اشبيلية العالمي بإسبانيا، ثم «هيلموث وأوباتا وكاسابوم»، وهم مصممو جامعة الملك عبد العزيز في الرياض، ثم «ريتشارد ماير» وشركاه، وهي الشركة التي قامت بتصميم متحف جيتي ومتحف الفن المعاصر في برشلونة، وأخيراً شركة «مورياما وتشيما»، ومقرها في تورنتو وهي أقل الشركات الأربع شهرة.

وكان التحدي الذي فرضته الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض على المهندسين المعماريين، هو أن يكون المجمع التراثي بؤرة ثقافية للمملكة، وأن يكون عنصراً حيوياً في النسيج الحضري لمنطقة وسط العاصمة، بحيث يعطي الإحساس بالاستمرارية ويكون مصدر فخر للمواطنين.

وحسبما ذكره أحد كبار مديري الهيئة، فإن موريياما فاز بمشروع تصميم المتحف نظراً للأهمية البالغة التي يوليها للاختلافات الثقافية، حيث وجدت الهيئة أن أسلوبه في التصاميم المعمارية، مقارب جداً لأسلوبها . وقد قامت شركة «شركاء العمرانية» التي يوجد مقرها في الرياض، بدور الشريك المحلي في المشروع، تحت رعاية واحد من أشهر المهندسين المعماريين السعوديين في المملكة، وهو المهندس المعماري على الشعيبي، الذي تضم أعماله السابقة قصر «طويق» الحائز على جائزة أغا خان لعام ١٩٩٨م . وبعد أسابيع قليلة من إعلان فوز موريياما بالمشروع، قام برحلته الأولى إلى الصحراء ذات الرمال الحمراء، ليعود



تصوير: محمد شبيب

يحتوي المتحف الوطني السعودي الجديد على مجسمات للأنماط المعمارية السائدة في مختلف مناطق المملكة، كما تظهر في الصورة أيضاً الأدوات المستخدمة في زراعة النخيل

منها بمجموعة ألوان وأنسجة زخرفية، وبالفكرة الرئيسة للمتحف، وهي الواجهة التي تشبه الكثيب الرملي.

ويبرز الشكل النهائي للمتحف الوطني خاصيتين قلما تجتمعان في تصاميم المتاحف المعاصرة، وهما البساطة والمرونة، حيث أن المخططين السعوديين كانوا قد قرروا في بادئ الأمر أنهم لا يريدون أسلوباً معمارياً يتسم بالفخامة الزائدة والميل نحو الانبهار، ولا يرغبون في اتباع أسلوب «بيلباو قاقنهايم» في التصاميم الداخلية، بحيث يكتسب التصميم الداخلي لكل قاعة العرض سمات فردية تنبع من الأعمال والمعروضات الفنية التي يتم عرضها فيها. وباعتباره متحفاً جديداً، فقد صمم المتحف الوطني ليتوافق مع التغيرات التي تحدث على مدى التاريخ، خاصة في ظل استمرار تطور البحوث المعمارية، وتقديم مؤرخي الحضارات لوصف أكثر دقة للحياة في شبه الجزيرة العربية منذ قديم الزمان. إضافة إلى ذلك، فإن السرعة التي اتسمت بها عملية التصميم والبناء كانت تعني أنه كان يجري صب الأساسات قبل اتخاذ القرارات النهائية بشأن كيفية استخدام قاعات العرض التي ستوجد فوقها، ونظراً لأن عملية جمع الآثار التي ستعرض في المتحف كانت قد بدأت لتوها في ذلك الحين، فإنه كان يتم تصميم قاعات العرض لمعروضات لم تكن معروفة للمصممين آنذاك.

ويقول أنتوني ريتش، من شركة «ريتش آند بيتش ديزاين إنترناشيونال»، الذي قام بدور كبير مصممي قاعات العرض، لتوضيح هذا الجانب: «لم تكن المجموعات الفنية للمتحف الجديد كافية لترجمة التاريخ السعودي بالكامل اعتماداً على القطع الأثرية وحدها». وهذا التحدي هو الذي قاد فريق العمل إلى إقامة مجسمات معمارية وأثرية تحقق الأهداف التي بني المتحف من أجلها. ومن هنا فإن التقشف الذي يتسم به التصميم المعماري الأساس للمتحف يجعل من الممكن استخدام أسلوب غني بالمؤثرات البصرية في تنفيذ قاعات العرض في المتحف. وبالنظر إلى عدد المجسمات التاريخية المعروضة، يمكننا القول بأن التصميم الداخلي للمتحف يحتوي، إلى حد ما، على فن معماري أكثر من التصميم الخارجي، وهذا ما يزيد في قيمة المتحف الذي يركز على النواحي التثقيفية. ويشير ريتش إلى أن مجموعة العروض التي صممها تسمح بإضافة أية قطع أثرية يتم اكتشافها لاحقاً. وفي الواقع فإن التصميم الحالي يعطي في بعض الأحيان الانطباع بأنه خيمة أو قسم في معرض عالمي، وليس متحفاً تقليدياً يعتمد على الصناديق الزجاجية وبطاقات الوصف. وهذا الأسلوب في تنظيم المتاحف قد أخذ يلقى اليوم رواجاً، ولو بصورة بطيئة، حتى في المتاحف العالمية ذات الصبغة العلمية، حيث بدأ مديرو المتاحف يدركون أن بإمكان هذا الأسلوب المساعدة في تحقيق المهمة التثقيفية للمتحف من خلال زيادة قدرته على جذب الناس على اختلاف ميولهم.

وعلى هذا المنوال، فإن بعض أهم العروض التي يقدمها المتحف ليست حتى مجرد نماذج، وإنما هي عبارة عن شاشات كمبيوتر تفاعلية تستخدم اللغتين العربية والإنكليزية بالإضافة إلى عروض فيديو على شاشات ضخمة. وتخطو المحاكاة وإنشاء المجسمات خطوة أخرى لتبلغ درجة أعلى من التجريد، باستخدام رسوم معدة بالحاسوب متحركة جيدة الصنع تبدو كما لو كانت ثلاثية الأبعاد، وتبين كيف كان العرب خلال الفترات التاريخية السابقة يزرعون ويتنقلون ويبنون مساكنهم، ويأكلون ويتسامرون، كل ذلك بتفاصيل جذابة تستند إلى البحوث الحديثة للعلماء السعوديين، ووكالة الآثار السعودية. وفي ظل هذا الجمع بين إمكانيات الصور المرئية والتفاصيل الغنية بالمعلومات، فإن تلك العروض تعد من أكثر عروض المتحف جذباً للزوار من الناحيتين الفكرية والعاطفية.

ويأمل منظمو العروض بالطبع أن يسهم المتحف، من خلال الصور والقصص التي يتركها في أذهان رواده خاصة الشباب السعودي منهم، في تنشيط السياحة الداخلية. كما يساعد التصميم المعماري البسيط للمتحف على قيام العروض بالمهمة المتوقعة من متحف تعليمي، وهي إثارة الاهتمام بالأماكن والأحداث الحقيقية التي تصورها تلك العروض. وبالنسبة لزواره القادمين من الخارج، فإن المتحف يعد مكاناً مريحاً جميلاً يمكن قضاء ساعات قليلة فيه للحصول على فكرة شاملة عن تاريخ المملكة والإسلام، كل ذلك في مبنى ذي تصميم معماري يتسم بالجمال، الذي لا يطغى على أهمية محتويات المتحف.

وفي ليلتي الأخيرة في الرياض زرت المتحف مرة أخرى عند غروب الشمس، وظهر لي عندئذ بعد بصري في التصميم لم أكن قد لاحظته من قبل، حيث كانت الشمس التي مال لونها إلى اللون الأرجواني الغامق تلقي بظلال أبراج دارة الملك عبد العزيز على واجهة المتحف المنحنية التي تشبه الكثيب الرملي، وكأنها مسرحية ظلالية دبت فيها الحياة، تتنقل ظلال الزوار السعوديين فيها الذين كان البعض منهم يتوقف ليتأمل ظله على واجهة المتحف. وكان هذا المزج اللحظي بين الماضي والحاضر يمثل خاتمة النجاح في تصميم المهندس المبدع «موريياما»، حيث تسقط ظلال الماضي، التي تحركها أصابع الحاضر، على خلفية صورة مستمدة من الصحراء تم تنفيذها باستخدام التقنيات الحديثة.■

---

* عن مجلة أرامكو وورلد عدد سبتمبر – أكتوبر ١٩٩٩م.

المزج اللحظي بين الماضي والحاضر يمثل خاتمة النجاح في تصميم المهندس المبدع "موريياما" حيث تسقط ظلال الماضي التي تحركها أصابع الحاضر على خلفية صورة مستمدة من الصحراء

الثورة الطبية الجديدة

تقنية دمج الرقائق الكمبيوترية بالخلايا العصبية

بقلم: د. خالص جلبي*

وصلت البحوث في مجال طب الأعصاب إلى عتبة تذكر بالمعجزات، وكانت سابقاً تدخل في حكم المستحيلات. فالعمي الآن يبصرون والصم يسمعون والمشلولون بشلل نصفي سفلي يمشون ويسترجعون الوظيفة الجنسية. كما يتم زرع الدماغ برقائق كمبيوترية مدمجة بحيث تتحد النهايات العصبية مع الرقائق الإلكترونية (CHIPS) وتتبادل من خلالها الأعصاب والكمبيوتر المعلومات(١). فاليوم يمكن زرع رقيقة كمبيوترية في الأذن الداخلية على هيئة القوقعة (COCHLEA) فتحرر الإنسان من الصمم، بل وتطور حاسة السمع بشكل يفوق أشد آذان الحيوانات حساسية. فإذا كانت الأذن مزودة بمائة ألف نهاية عصبية لإدراك وسماع الأصوات، فإن الأجهزة الجديدة سوف تمنح الأذن البشرية طاقة تمكنها من التقاط أضعف الأصوات وأخفتها أو بالعكس. كما يمكن بهذه التقنية أيضاً تحرير الإنسان الأعمى من الظلمات التي يسبح فيها وذلك حسب نوع العاهة التي يعاني منها سواء تم التدخل الطبي على الشبكية في قعر العين، أو على تركيز الإبصار في الفص القفوي في الدماغ حيث يتمتع حينئذٍ بنعمة الإبصار.

كما يمكن دمج هذه التقنية بالنهايات العصبية للسان بحيث يصبح من السهولة معرفة السموم أو المذاقات الفاسدة فوراً بدون إجراء تحليل كيميائي. إن المستقبل مفتوح على مصراعيه لإنجازات مبهرة في هذا الصدد. فالسر يكمن في وضع اليد على القوانين التي وضعها الله في خلقه،

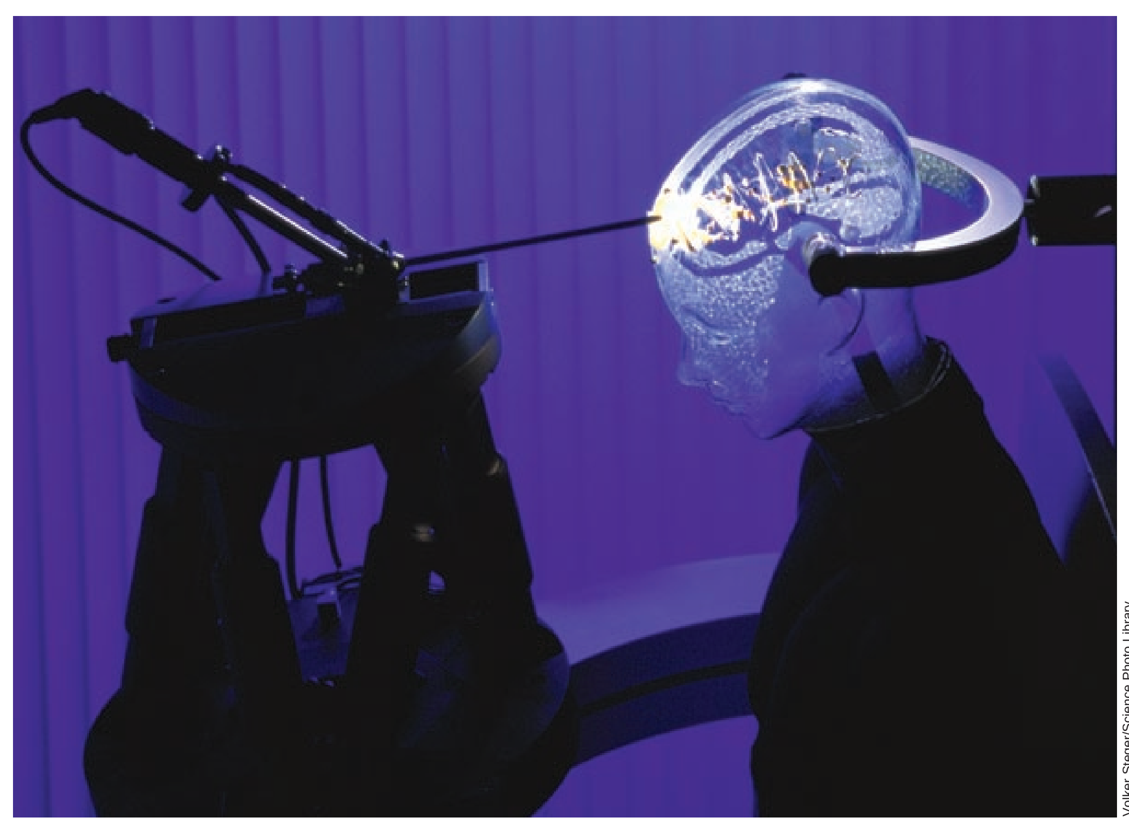
وعندما نعرف آلية الإبصار يمكن أن نتدخل فنصلح العطب، ونرفع الخلل ونعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي، فسبحان الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم. وبفضل هذه التقنية يمكن تطوير الأدمغة الآلية (BRAIN MACHINES) بحيث يمكن من خلال وصل مراكز الدماغ العليا بالكمبيوتر، نقل معلومات وذكريات من دماغ أي إنسان إلى أي كمبيوتر أو إلى إنسان آخر بما يشبه عملية النسخ الفوتوغرافية. وليس هذا فقط، بل إن تفريغ المعلومات سوف يعتمد نظاماً إلكترونياً وليس نظاماً فيزيائياً قاصراً، فنحن الآن حينما نريد نقل المعلومات مانزال نركب ظهر الصوت الفيزيائي، أما بهذه الطريقة الجديدة فسيتم نقل المعلومات في لمح البصر، مما يمكن نقل أو تفريغ «انسكلوبيديا» كاملة في دماغ إنسان في دقائق معدودة تماماً مثلما ننسخ القرص المدمج أو «الديسكيت» من الكمبيوتر، بما يشبه نقل البيانات من كمبيوتر إلى آخر ومنه إلى البشر، فيتحقق حينئذ شيء مذهل أشبه بالإنترنيت ولكن من شبكة عصبية كهربائية بين كمبيوترات العالم وأدمغة البشر أجمعين!!

قصة الفرنسي (مارك ميرجر)

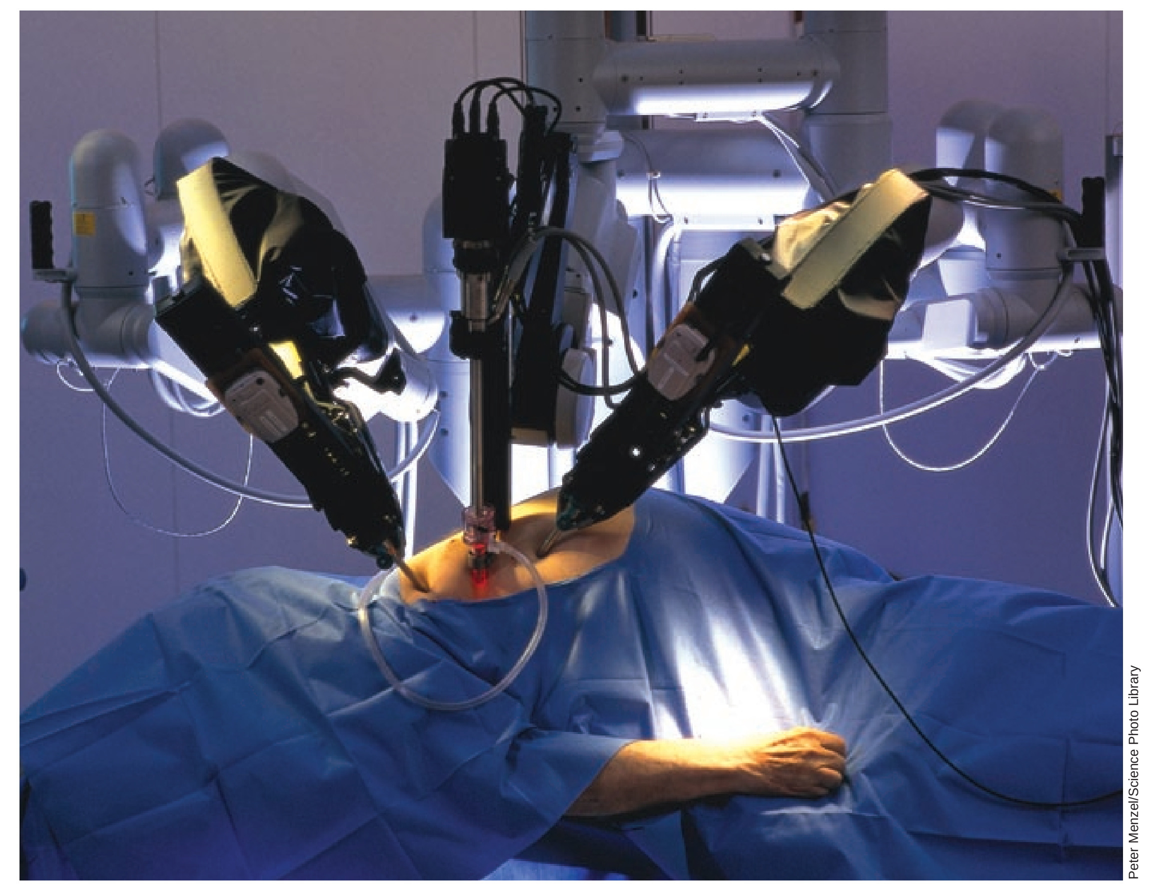
تعرض شخص فرنسي يدعى مارك ميرجر، وهو محاضر في علم الاقتصاد في جامعة مونبلييه في فرنسا إلى حادث مروع، حيث سقط وهو يقود سيارته في حفرة عميقة، فقد فيها وعيه ولم يشعر إلا وهو في سرير المستشفى لا يقوى على تحريك أطرافه السفلية ولا يشعر بها. كما فقد نعمة الرجولة فلم يعد يحس بالنعوظ نهائياً فاجتمع عليه الشلل وفقدان القدرة الجنسية وهو الرجل الشاب المتزوج. كانت الصدمة شديدة له ولأفراد عائلته وتم إخباره بحقيقة وضعه اليائس الذي يتلخص في مقولة (فالج لا تعالج) وأنه ليس أمامه إلا التمرينات الفيزيائية ومحاولة الاستفادة من أطرافه العلوية في الحركة وتجنب الاستلقاء قدر المستطاع. استسلم المريض لقدره تسع سنوات عجاف حتى حدث أمر لم

* استشاري جراحة في الأوعية الدموية بمستشفى الملك فهد التخصصي ببريدة.

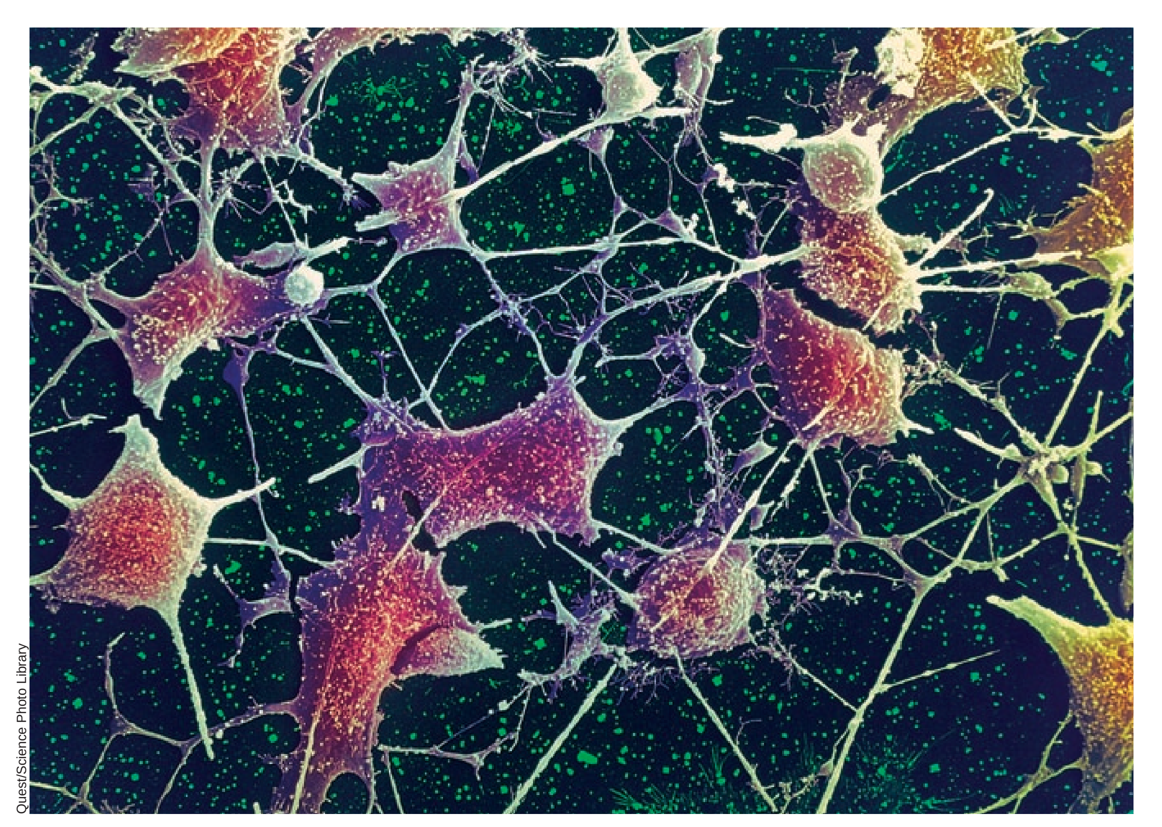
إن السيالة العصبية ظاهرة كيميائية كهربائية. فهي تمر في العصب مثل الكهرباء. ولكنها عندما تلتحم مع غيرها تفرغ ما مجموعه أربعين مادة من المواد الكيميائية التي تشكل لغة تفاهم كيميائية خاصة بها


Volker Steger/Science Photo Library

روبوت آلي يقوم بإجراء عملية جراحية في الدماغ على أحد النماذج المختبرية، التي بينت مقدار الدقة المتناهية التي يتمتع بها هذا الروبوت في مجال الجراحة العصبية


Peter Menzel/Science Photo Library

يقوم الروبوت الجراح بإجراء عملية جراحية في قلب أحد المرضى، حيث تبدو أدوات الجراحة في نهاية ذراع الروبوت


Quest/Science Photo Library

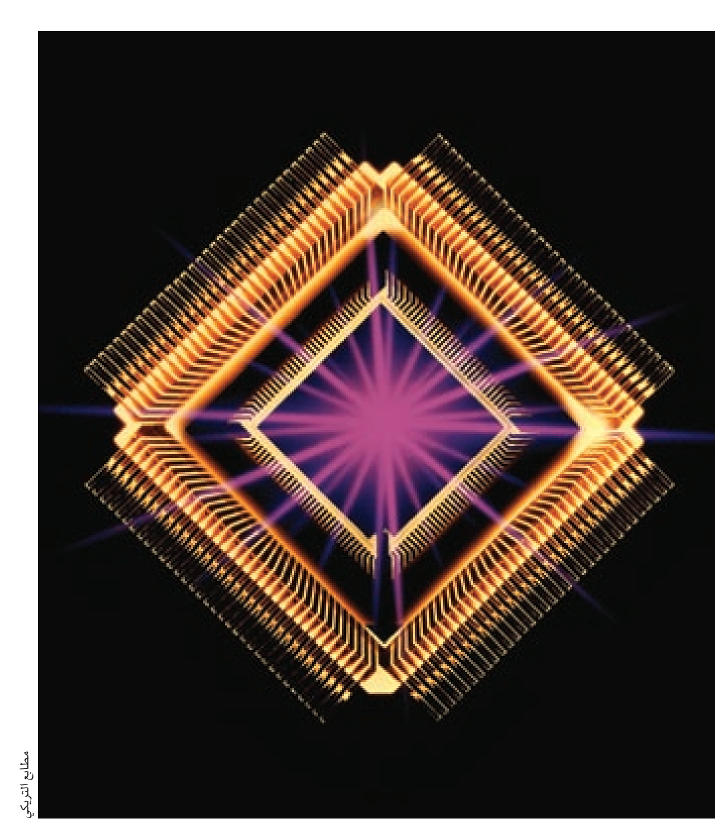
مقطع لبعض الخلايا العصبية التي توجد في الدماغ والحبل الشوكي

يكن بالحسبان. فلقد عرض عليه فريق الجراحة العصبية في جامعة (مونبلييه) أن يجروا له جراحة لم يتنبأ بها (نوسترادراموس) في كتابه الشهير[٢]. وقام الفريق الطبي بشرح مخاطر العملية له وطبيعة التقنية الجديدة، فهم سوف يشقوا البطن حتى يصلوا إلى مكان النهايات العصبية حيث انعطب الحبل الشوكي، ومن المعروف أن حبل النخاع الممتد من أسفل الجمجمة حتى التوزع العصبي النهائي لا يزيد ثخنه عن أصبع عادية [٣]. وفي الحادثة التي تعرض لها انهرس هذا الحبل وتدمرت معه الوظيفة العصبية، فالأمر كان أشبه بكابل كهربائي تعرض فجأة للانقطاع. وتكمن المشكلة في أن الإصابات العصبية لا تتشابه مع إصابات الأوعية الدموية التي ترد إلى المشافي. فمثلاً عندما أحضرت الطفلة (خديجة) من مستشفى (ساجر) في المنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية إلى المستشفى التخصصي في القصيم، وقد تمزقت لديها الأوعية والأعصاب، كانت المهمة السهلة هي في إعادة سريان الدم بوضع شريان جديد مستخدم من وريد مقلوب[٤]، ولكن المهمة المعقدة كانت تكمن في إعادة رتق الأعصاب. فالأعصاب لا تشبه الأوعية ولا تشبه كوابل الكهرباء. إن السيالة العصبية ظاهرة كيميائية كهربائية، فهي تمر في العصب مثل الكهرباء، ولكنها عندما تلتحم مع غيرها تفرغ ما مجموعه أربعين مادة من المواد الكيميائية التي تشكل لغة تفاهم كيميائية خاصة بها، وهنا يكمن التحدي الأعظم. وقد طور الفريق الطبي في جامعة مونبلييه تقنية رائدة في وصل النهايات العصبية المحيطة المسؤولة عن حركة العضلات بأعصاب صناعية متصلة بكمبيوتر ينظم حركة العضلات، ويعيد لها قوتها السابقة[٥] تماماً كما في منظم ضربات القلب (pace maker)، حيث أننا إذا استطعنا السيطرة على السيالة العصبية أمسكنا بمفتاح تنظيم ضربات القلب مما يسهل حركة العضلات بشكل عام. وهذا هو الذي حدث مع الفرنسي المشلول (ميرجر مارك)، فقد تم شق بطنه ووصل النهايات العصبية بشرائح كمبيوترية منظمة للحركة، مما أعاد الحركة للمفاصل والعضلات، واستطاع الرجل المشي فعلاً وهو لا يصدق بما يكاد يشبه المعجزة الطبية، وذلك بعد أن بقي مربوطاً إلى مقعده عقداً من السنين.

يمكن من خلال وصل مراكز الدماغ العليا بالكمبيوتر، نقل معلومات وذكريات من دماغ أي إنسان إلى أي كمبيوتر أو إلى إنسان آخر بما يشبه عملية النسخ الفوتوغرافية

قصة المريض جيري والطبيب دوبيلي

في مترو الأنفاق الصاخب في نيويورك شمالي مانهاتن، حيث يتدفق الناس ويحتشدون في جموع شبيهة بالمسيرات الجماعية، كان يتحرك رجل ممتلئ البنية،



مطابع التريكي

صورة مكبرة لأحدث الرقائق الإلكترونية

وكان مظهره الخارجي يوحي وكأنه قادم من كوكب آخر، فعلى أنفه استقرت نظارة عجيبة، في العدسة اليمنى منها توجد آلة تصوير صغيرة، أما العدسة اليسرى فبدت كعين حشرة تتوهج في مواجهة الضوء بين حين وآخر، وحول أذنيه امتدت أشرطة جانبية متصلة بكيس أسود بحجم قبضة اليد مربوط بخصره بإحكام، وفي هذه الحقيبة يعمل كمبيوتر ذكي بأزيز خافت. أما أهم ما يميز منظر هذا الرجل فهو خصلة بيضاء من أشرطة كهربائية تتدلى من قفاه بدت مختلطة بشعره الأبيض. وتضم هذه الأنشطة ٦٨ كابلاً كهربائياً وتدخل خلال فتحة إلى داخل الجمجمة. كان هذا الرجل المتقاعد المدعو جيري البالغ من العمر ٦٢ سنة متوجهاً إلى جامعة كولومبيا لمقابلة طبيبه الدكتور ويليام دوبيلي الذي كان سبباً في منحه نعمة الإبصار من جديد، بعد أن عاش في ظلمات العمى عقوداً طويلة، وهو يشكر الله عزَّ وجل على ما تفضل عليه وأنعم، ويلتفت إلى طبيبه بين أضواء عدسات التصوير ومراسلي الصحف من جميع أنحاء العالم، الذين تجمعوا حوله، قائلاً: «لا أقول لكم إنني أبصر كل شيء كما تبصرون أو أتمتع بمشاهدة الألوان كما تستمتعون، ولكنني أبصر بحمد الله وأميِّز الوجوه التي أمامي وأهتدي إلى طريقي في زحمة مترو قطار الأنفاق». وقد استطاع الدكتور دوبيلي من خلال عمل استغرق ثلاثين سنة أن يطور جهازاً رائعاً للإبصار عند الإنسان، مقلداً بذلك العين التي تقوم بدور التقاط الضوء وتحويله إلى نبضات كهربائية لترسلها في النهاية إلى النص القفوي في مؤخرة الدماغ كي يقوم بتفسيرها. وقد عمد الدكتور دوبيلي إلى وضع أجهزة معقدة لإنجاز هذه المهمة، تكون متصلة بكابل لنقل مناظر الرؤية مباشرة إلى فص الدماغ المسؤول عن الرؤية، وذلك عن طريق جهاز يرسل أشعة ما فوق الصوتية لقياس مسافات الأشياء المترامية أمام عيني المريض اللتين لا تبصران، فيتحدد مجال الرؤية الفراغية ثم تقوم آلة التصوير بالتقاط صور متتابعة بمعدل ثماني صور في الثانية، ثم ترسل الصور إلى جهاز كمبيوتري دقيق يحلل المعلومات ويحولها إلى نبضات كهربائية تمر عبر أسلاك دقيقة تشق طريقها إلى مركز الإبصار عبر فتحة الجمجمة. وهكذا تم فتح النافذة أمام عيني «جيري» ليطل من جديد على العالم بعد أن فقد نعمة البصر منذ عام ١٩٦٢م واسترده بعد أربعة عقود من السنين.

أحدث معالجة لعاهة العمى

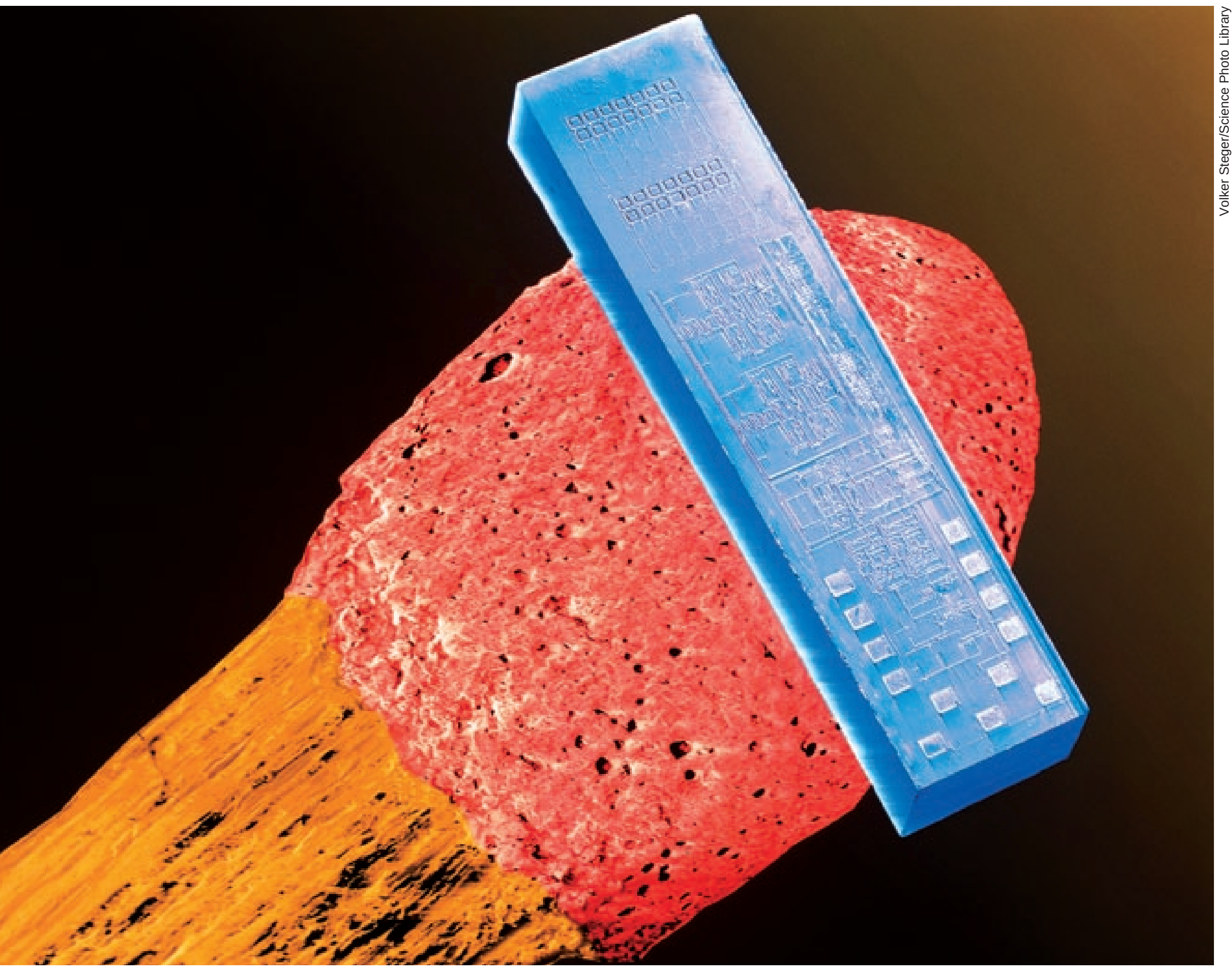
يشكو في ألمانيا ما لا يقل عن ثلاثين ألف إنسان من العمى بمرض غريب هو التهاب الشبكية الصباغي (Retinitis Pigmentosa) حيث ينطفئ البصر تدريجياً دون علاج واق. ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى خلل جيني، ولكن مع تطور تقنية استخدام الشرائح الكمبيوترية بدمجها بالأعصاب، فكر الأطباء في زرع رقيقة إلكترونية (Chip) في الشبكية مباشرة، وهي فكرة تختلف عن الطريقة التي ذكرناها عند الأعمى جيري بالزرع المباشر في الدماغ. وهو ما فعله هوجو هاميرليه البيولوجي في قسم العلوم الطبيعية من المعهد الطبي في رويتلنجن في ألمانيا، الذي أسهم في رد نعمة البصر للمكفوفين، لكن بطريقة مختلفة عما فعله زملاؤه الآخرون. لقد صبَّ «هاميرليه» جهوده مباشرة على الشبكية بعد دراسة مستفيضة لكيفية تفاعل الشبكية مع الضوء، وكيفية تحليل الضوء ثم تحويله إلى نبضات كهربائية مرسلة إلى الدماغ. وكان السؤال الذي حاول الإجابة عنه هو كيف يبصر الإنسان فعلاً؟[٦] فعندما يسقط الضوء على العين فإنه يمر بمسارات مختلفة من القرنية والعدسة والجسم الزجاجي قبل أن يسقط على الشبكية، وتضاف له خلطة أخرى من الإدراك الفراغي،

لقد أدرك العالِم البيولوجي "هاميرليه" بأن معظم الإصابات تنتج من تلف الشبكية. لذا قام بتطوير شريحة كمبيوترية مكونة من ألف خلية إلكترونية في مساحة ٧٠ ميكرومتراً لتقوم بوظيفة الخلايا العصبية التالفة

بعدها تحوله العين إلى نبض كهربائي ينقل عبر كابل من العصب البصري مكون من مليون ليف عصبي ليرتبط بالخلايا الدبقية، ومنها إلى الفص القفوي في الدماغ، حيث يقوم بتحليل المعلومات الواردة وربطها وتخزينها وتفسيرها وتفعيلها مع معلومات أخرى لتوليد ظاهرة الوعي المرتبط بالحواس(٧). لقد أدرك «هاميرليه» بأن معظم الإصابات تنتج من تلف الشبكية، لذا قام بتطوير شريحة كمبيوترية مكونة من ألف خلية إلكترونية في مساحة ٧٠ ميكرومتراً لتقوم بوظيفة الخلايا العصبية التالفة. وحالما تم تحقيق ذلك، أمكن تحقيق سبق علمي جديد، عن طريق زرع شرائح كمبيوترية في عيون سليمة، كي تبصر كما يفعل النسر من الأعالي، فترى على بعد كيلومترات أرنباً صغيراً، أو بالعكس أي التحكم بقدرة الإبصار وتغييره من المستوى الضخم (Macro) إلى المستوى الضئيل (Micro) لتحدق على نحو مجهري أي تماماً مثل عدسة كاميرا الفيديو اقتراباً أو ابتعاداً، فترى الأشياء الصغيرة وتصل إلى تكبير الأشياء البعيدة. كما يمكن أيضاً وضع شرائح خاصة تقوي الإدراك بما يشبه إدراك الأفاعي للأشياء بالأشعة ما تحت الحمراء، لتصبح عيوننا قادرة على أن تجمع ما بين ميزة عين النسر والحشرة والخفاش، فنرى مثل الثعابين ونحس بطريقة أفضل من الحشرات، ونتسلق بطريقة أسرع من العناكب. فضلاً على التمتع بالألوان التي نتميز بقدرتنا على رؤيتها ونتفوق بها على الحيوان.

هل يمكن أن نمتلك حاسة إضافية؟

قام الدكتور كيفن وارويك من جامعة (ريدينج) البريطانية بتجربة مثيرة على نفسه عندما زرع في ذراعه شريحة كمبيوترية، وصار بهذا الطريقة يخترق الأبواب وذراعه يعمل ويتعامل مع الكمبيوتر وكأنه التوأم له. وفي مقابلة صحفية خاصة قال: «عندما رفعت الشريحة من ذراعي انتابني شعور بأنني فقدت أخي التوأم، لقد أصبح إحساسي بالكمبيوتر مثل التوائم السيامية، أما الشريحة التي زرعتها في ذراعي فسوف أزرع مثلها العام القادم في دماغي أنا وزوجتي بحيث



Volker Steger/Science Photo Library

كاشف ضغط الدم، وهو عبارة عن رقيقة إلكترونية مجهرية، تزرع عادة تحت جلد المريض الذي يوجد في العناية المركزة. بقصد تقديم قراءة مستمرة لضغط الدم

نتخاطب ونتواصل بالأفكار أي توارد الأفكار عن بعد». وأضاف الدكتور (وارويك) قائلاً: «لو كانت توجد شريحة كمبيوترية في دماغي خلال هذه المقابلة لقمت بتفريغ المعلومات إليكم في لح البصر كما يحصل بالضبط أثناء نقل المعلومات من كمبيوتر على قرص ليزري». ليس هذا فقط بل يمكن من خلال الرقائق الكمبيوترية وصل الأدمغة بالكمبيوتر، ووصل بعضها ببعض بحيث تنقل المعلومات مما يبشر بثورة جديدة في مجال المعلومات لم تخطر على بال أحد. ويضيف الدكتور (وارويك) إنه بصدد إجراء تجارب جديدة من وصل الشرائح بالأعصاب والدماغ ثم دراسة المخططات الكهربائية ليرى السر في نشوء فيض السعادة أو اللذة، وما الذي يحدث على وجه الدقة لكي يتسنى توليدها بواسطة النبض الإلكتروني لتوليد المشاعر الإيجابية صناعياً. ويقوم بهذا البحث حالياً عدد من العلماء عن طريق صناعة العبقرية، وأن الموضوع لا يزيد على حقن الدماغ بمائة ألف وحدة معرفية في جهد عشر سنوات. وسوف يدشن ذلك عصراً عجيباً لبشر تعد العبقرية لديهم من روتين الحياة اليومية.

هل يمكن زرع الدماغ؟

قام الدكتور وايدنر من جامعة لوند في السويد بزرع الخلايا الدماغية (Brain Transplantation) من اللطخ السوداء المأخوذة من الأجنة الساقطة، وهي الخلايا التي تفرز مادة الدوبامين المسؤولة عن تنظيم وتوجيه الحركة[8]، فحرر مرضاه من معاناة اهتزاز الأطراف والأنامل الذي يجبر المرضى على الانعزال من الحياة الاجتماعية. أما الدكتور روبر وايت فقد نجح في الوصول إلى مرحلة الزرع الكامل للدماغ في رؤوس القرود، وهو يستعد للقفزة الكبرى لزرع دماغ الإنسان. أما فيما يتعلق بتنقية الشرائح المدمجة فقد عمد الدكتور ديتليف لينكه من جامعة بون في ألمانيا من قسم الأبحاث الفيزيولوجية العصبية إلى تطبيق تجربة مثيرة في أحد المرضى النفسيين الذي يهدد بالانتحار، فقد زرع في دماغ المريض شريحة منظمة لإفراز مادة (السيروتونين) التي تعدل مزاج الكآبة. ويعرف الطب اليوم أن انشراح النفس له قاعدة مادية، ولعل أحدنا خالجه هذا الشعور بعد شرب فنجان قهوة أو بعد وجبة لذيذة مع ارتفاع نسبة السكر في الدماغ والدم أو بالعكس. وقد شاهد الناس يوماً أن مريض الدكتور (لينكه) يتقدم من جسر عال يريد الانتحار، ولم يكن في قدرة أحد الوصول إليه، وفجأة توقف وتراجع عن فعلته التي صمم عليها، وعرف أن السر الكامن في نكوصه عن قرار الانتحار، عائد للجهاز المعدل لكمية إفراز مادة «السيروتونين» في الدماغ، وهكذا تم انقاذه من الموت! وهذا الإنجاز الطبي التقني يمكن تطبيقه على مرضى «الصرع» و«الباركنسون» و«الزهايمر» تماماً كما سوف يحدث مع مرضى السكري، الذين سيستخدمون التقنيات الجديدة التي سوف تحررهم من الحقن الطبية المزعجة والمؤلمة، وذلك بزرع شريحة منظمة لإفراز أية مادة يحتاجها الجسم. بموجب ميزان إلكتروني داخلي حساس، ومن المؤمل أن تسهم هذه التقنيات الطبية الرائدة في وقاية المرضى من الموت بالانتحار أو السقوط في النار أو الانهيار من شاهق أو الغرق في لجة نهر نتيجة الاهتزاز والارتعاش إلى ما لا نهاية، من أمراض فتاكة تقتل الإنسان اجتماعياً قبل أن تميته فعلياً.■

أمكن تحقيق سبق علمي جديد، عن طريق زرع شرائح كمبيوترية في عيون سليمة، كي تبصر كما يفعل النسر من الأعالي، فترى على بعد كيلومترات أرنباً صغيراً، أو بالعكس

الهوامش والمراجع:

(١) جاء عرض هذا التطور في سلسلة الأبحاث الطبية التي عرضتها مجلة الشبيجل الألمانية مع التطور العلمي في القرن الواحد والعشرين على خمس حلقات. العدد ١٩ لعام ٢٠٠٠م.

(٢) اشتهر هذا الطبيب من العصور الوسطى بكتاب نشره عن تنبؤات بشكل ذكي صيغت بشكل ذكي.

(٣) النخاع الظهري، حبل عصبي يمتد من نهاية القحف، يمر عبر الفقرات على نحو محفوظ بشكل دقيق.

(٤) يتم زرع الشرايين أو استبدال الشرايين المعطوبة سواء المغلقة أو الممزقة بوريد يؤخذ من الساق مقلوباً ١٨٠ درجة بسبب الدسامات الوريدية.

(٥) يعتبر العصب هو الآمر للعضلات بالحركة من خلال اتصال عبر لوحة عصبية في العضلة تفرز مادة الاستيل كولين فتقبض العضلة على نحو كيميائي.

(٦) العين كرة في نهايته طبق (لاقط) مستقبل للنور، وهذا الطبق مكون من اسفنجة من عشر طبقات من الخلايا منضدة فوق بعضها البعض.

(٧) راجع التحليل الرائع في كتاب (العلم في منظوره الجديد) المترجم من كتاب بعنوان (قصة العلوم الحديثة) تأليف (روبرت آوغروس وجورج ستانسيو) ترجمة مصطفى خلايلي نشر سلسلة عالم المعرفة الكويتية عن عمل الدماغ وآلية الإبصار.

(٨) تأتي الحركة بأمر من الدماغ من الفص الصدغي الأيسر، ولكن الأداء الدقيق يتم من خلال مرور الأمر بفلترة عصبية عبر أمكنة على شكل لطخ سود في قاعدة الدماغ.

قصـة قصـيرة:

الحـــافلــــة

بقلم: خليل إبراهيم الفزيع *

استقبل شارع الوزارات بعد أن لفظه مبنى وزارة المعارف مثقلاً بالحزن.. متسربلاً باليأس والقنوط.. ولليأس عاصفة تجتاح طمأنينة القلب، وللقنوط إعصار يقتلع جذور اليقين، كان قد وصل من محطة الحافلات في البطحاء مشياً على الأقدام، مع أن حافلات خط البلدة الصغيرة تمشط باستمرار المسافة بين البطحاء والمطار، لكنه أصر على أن يحفظ القرش الأبيض لليوم الأسود...، جرّ قدميه وقطع الشارع مسرعاً ليتفادى سيل السيارات الذي انهمر فجأة.. رمى جسده فوق أحد الكراسي في مطعم الفول المقابل لمبنى الوزارة، وانغرس أمامه صبي المطعم مستفسراً عن طلبه، وهو متشاغل بمسح الطاولة:

- فول .. فلافل.. بيض.. كبدة؟

لم يرد .. تركه صبي المطعم متعجباً دون أن يصر على كسر طوق صمته.

راقب شارع الوزارات.. على ضفتيه منشآت ضخمة، يفصلهما نهر من المركبات، وموج من البشر تتقاذفه رياح الحياة، ينتهي الشارع بميناء جوي حيث مبنى المطار في نهايته شمالاً، والبطحاء في نهايته جنوباً، وقد شطرها خندق عميق. انتشر الباعة على جانبيه في مظهر أثاره عندما شاهده هذا الصباح، حاول أن يستعرض تفاصيل رحلته.. كل شيء كان شاخصاً أمام بصره.. راسخاً في وجدانه.. واضحاً في ذاكرته .. فأصغى إلى بوح الخاطر.

الشمس لم تزل تتثاءب في بداية يقظتها لتطل على مدينته الساحلية تنزع أقدامها بتثاقل من أثباج مياه الخليج.. بدأت الرحلة (بزعيق) الحافلة الذي مزق أستار الصمت. وكلاب المدينة وقططها لم تزل تجوب الشوارع كأنما تريد أن تعض على بقايا الليل، ولا تسلمه للرحيل.. الركاب يرددون:

- يا فتاح يا عليم .. يا رزاق يا كريم.. أصبحنا وأصبح الملك لله.. توكلنا على الله.. يا فتاح يا عليم.

لاحت تباشير الصباح. تسامق الأمل الندي.. ارتشف القلب وعوداً تلوح في أفق الأمنيات.. التفّ حول نفسه ليتقي لسعة البرد المشبع بالرطوبة. نظر حوله فرأى الركاب وقد تشرنق كل واحد منهم في ذاته دون أن يلتفت إلى جاره .. تساءل سعد:

- ما الذي جمعهم في هذه الحافلة غير السعي وراء طلب الرزق؟ مثلما اجتمعوا سيفترقون، وقد لا يلتقي أحدهم بالآخر مدى الحياة.. أية أسرار أو طموحات تنطوي عليها نفوسهم؟ أية عواطف أو مشاعر تضمها جوانحهم؟

سائق الحافلة بدا آلي الحركة.. كأنه مبرمج لأداء مهماته بتلقائية مطلقة، صوته النحاسي.. وجهه العابس.. جسده الواهن.. نظره الضعيف؛ قفز إلى ذهنه سؤال:

- كيف يتسنى للسائق أن يقود حافلته بأمان، وهو كالأعمى يلتمس طريقه إلى مقود الحافلة.. بينما يقوم مساعده بكل إجراءات الركاب؟ أي خير يرتجى من حافلة سائقها أعشى؟

عاد صبي المطعم يسأل عن طلباته بابتسامة تنم عن الحياد.. دون أن يتكلم جمع سعد أطراف أصابعه، وهزَّ يده إلى الأعلى والأسفل، في إشارة تعني الانتظار.. كأنه أراد أن يقول:

- لا تستعجل .. سأذكر لك طلبي فيما بعد.

الناس ما زالوا يأتون ويذهبون، وهو قابع في مكانه، مثل من يبحث عن السكينة، لكن الحزن يقوده إلى منعرج القلق.. قلبه ينوء بصهد المعاناة.. عقله يرزح تحت مرارة الخيبة.

انطلقت الحافلة.. زفتها مجموعة من الكلاب التي أثارها ضجيجها، فانطلقت في أثرها في نباح متواصل، ثم بدأت تتراجع حتى اختفت وتلاشى صدى نباحها مع تلاشي عتمة الفجر.

مضى الزمن بطيئاً، ومضت معه الحافلة تئن في سيرها المتأني. وعورة الطريق ترغم الحافلة على أن تخض ركابها كقطع صغيرة في علبة مقفلة يعبث بها طفل صغير، وحرارة الشمس بدأت تتسرب إلى أجساد الركاب لتطرد بقايا برودة الصباح.

صوت الحافلة كان أشبه بالسعال المتواصل وهي تتهادى في سيرها المتئد، تاركة خلفها دخاناً كثيفاً

@ كاتب وقاص سعودي.

لا يتيح رؤية السيارات الفارهة التي كانت تمرق من الجانبين، وما تلبث أن تختفي مخلفة وراءها غباراً مزعجاً.. وحسرة في قلوب ركاب الحافلة.

مسح ما حوله في المطعم بنظرة شاملة.. رأى الجميع منهمكين في تناول ما في أطباقهم. و رائحة البصل تكاد تملأ المكان، وصبي المطعم يتنقل من طاولة إلى أخرى.. يمسح هذه الطاولة أو تلك بمنديل، ثم يلقيه على كتفه وهو يردد طلبات الزبائن بصوت ممطوط، متمرس في طقوس المهنة:

– شاي بالحليب.. شاي سادة.. فول.. فلافل.. بيض.. كبدة..

الوقت يمضي ببطء شديد.. الشمس تشتد حرارتها.. نذر الخطر تلوح.. زعيق الحافلة يزداد .. حتى توقف محركها. واكتمل المأزق عندما انغرست عجلاتها في الرمال، وحينها تسابق الجميع لإبداء آرائهم، وتحوّل معظم الركاب إلى (ميكانيكيين) كل واحد منهم يشخص العلة، ويصف العلاج، ما عدا السائق الذي تنحى جانباً، ثم تمدد في ظل الحافلة، تاركاً لمعاونه مهمة إصلاحها.

الشمس تقذف أشعتها الملتهبة والرمال تحولت إلى موقد كبير، العرق يتصبب غزيراً من الأجساد التي تزاحمت لتحتمي بظل صغير بجانب الحافلة، ومنتصف النهار لم يمض منه إلا أقله.

ازداد الشعور بالضيق.. راكب من أبناء الصحراء ألقى بجسده فوق كثيب غير عابئ بحرارة الرمال.. بدأ يسخر من قلقهم، انضم إليه بعض رفاقه.. خاضوا في أحاديث شتى لا علاقة لها بالحالة التي يعاني منها بقية الركاب.. تحدثوا بصخب .. وضحكوا بصوت عال.. ثم قام أحدهم ليؤذن لصلاة الظهر.

في هذا الجو المشحون بالضنى والمعاناة، لم ينس سعد أن اليوم التالي هو موعد المسابقة الوظيفية التي يسافر من أجلها إلى العاصمة.

الكل يأكل بنهم، وكأنما شهوة الأكل قد انفتح بابها على مصراعيه في هذا الصباح، لدى هؤلاء القادمين من كل فج، وصبي المطعم كلما لبى طلباً لأحد الزبائن، عاد إليه مستفسراً عن طلبه، ولما لم يعره انتباهاً، انصرف عنه متذمراً.



صاح شيخ في أرذل العمر:

– وحدوا الله..

أحدهم امتشق سيف الجرأة وقال:

– من يتذكر منكم إحدى خطاياه.. فليستغفر الله.

سعد وحده الغارق في بحيرة أفكاره، بعد أن طفحت نفسه بالخوف من أن يفوته غداً موعد مسابقة التوظيف.

بعد جهد جهيد.. استطاع مساعد السائق أن يصلح الحافلة بمساعدة بعض المتطوعين من الركاب. ثم انتصب السائق في مكانه، وطلب من الجميع دفع الحافلة لإنقاذها من رمال الدهناء العنيدة، هذه الرمال صعبة المراس، لا تسهل السيطرة عليها.. كيف استطاع الآباء والأجداد قهر رعونتها، وامتلاك زمام أمرها؟

عندما تحركت الحافلة انطلقوا وراءها ليأخذ كل واحد منهم مكانه، وقد مالت الشمس إلى المغيب، فانطلقت تبدد أنوارها كتل الظلام، في طريق رملية حيناً وصخرية حين آخر، وفي الحالتين تتمايل أجسام الركاب في كل اتجاه، وكأن سائق الحافلة قد أخذ على نفسه عهداً بأن يفرغ أجسادهم وعقولهم من الراحة والطمأنينة، قبل الوصول إلى العاصمة، التي ما أن لاحت أنوارها من بعيد، حتى استبشر الجميع خيراً.

وكأن صبي المطعم قد يئس منه عندما استنجد بصاحب المطعم، الذي وقف أمامه فجأة، وقال غاضباً:

– إما أن تذكر طلبك أو تفارق المكان.

نظر إلى هيئته العملاقة .. خشي الدخول معه في جدال غير متكافئ، فطلب طبقاً من الفول.

كان قد أمضى ليلته ساهراً في محطة الحافلات، وفي الصباح توجه في الوقت المناسب للمشاركة في المسابقة الوظيفية، فوجد في انتظاره إعلاناً بإلغاء المسابقة. ■

بضع ونيف والفرق بينهما

فريد أحمد إبراهيم

تنفرد اللغة العربية دون جميع اللغات بتعدد مفرداتها؛ إذا وضعت في موضعها الصحيح، ولكن قد تستخدم بعض الكلمات في غير محلها، مما يجعلنا نقع في خطأ لغوي وجب تقويم اللسان منه، ومن ذلك:

- بِضْعٌ، بفتح الباء وكسرها، ويطلق على العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة ولا يكون أقل من ثلاثة ولا أكثر من عشرة.

وكلمة «بِضْعٌ» تتجرد من تاء التأنيث إذا كان المعدود مؤنثاً. وذلك كقولنا: بضع عشرة فتاة، وتلحقها التاء إذا كان المعدود مذكراً مثال قولنا: بضعة عشر رجلاً.

ولابد من أن يأتي بعد كلمة «بضع» عقد من العقود، وألفاظ العقود هي: عشرة، عشرون، إلى تسعين، وعلى ذلك فلا يصح أن نقول بضع ومائة، ومن ذلك قول الشاعر في باب الهجاء من الحماسة لبعض العرب:

أقـول حين أرى كعباً ولحيته   لا بارك الله في بضع وسـتين

من السنين تملأهـا بلا حسب   ولا حياء ولا قدر ولا ديـن

- نَيِّفٌ: وهي كلمة تعني الزيادة وتدل بنصها على عدد مبهم، كما تدل على العدد من واحد إلى تسع من غير تعيين ولا حصر، فمن الخطأ قولنا نيف وثلاثون رجلاً، وصوابه ثلاثون رجلاً ونيف، وذلك لأن كلمة نيف لابد أن يسبقها عقد من العقود من عشرة إلى تسعين.

وذكر الدكتور محمد العدناني في كتابه «معجم الأخطاء الشائعة» أن كلمة نيف تعني الزيادة فنقول تنوف الدنانير على ألف.. أي تزيد.

- والفرق بين «بضع» و «نيف» هو:

- أن كلمة نيف: تضاف إلى عدد من العقود من عشرة إلى تسعين مثال : ثلاثون رجلاً ونيف.
- بضع يضاف إليها عقد من العقود، كقولنا «بضع وثلاثون».
- البضع يلحقها تاء التأنيث إذا كان معدودها مذكراً، والنيف لا يلحقها تاء تأنيث مطلقاً.
- البضع يطلق على العدد من ثلاثة إلى تسعة، والنيف من واحد إلى تسعة. ■

المراجع :
- النحو الوافي.
- لسان العرب.
- محيط المحيط.
- الأخطاء الشائعة.